التعليق الثمين

على تلخيص الحموية

للشيخ العثيمين

تأليف الفقير إلى الله تعالى/

أبي فيروز عبد الرحمن بن سوكايا القدسي الجاوي الإندونيسي

وفقه الله وغفر له

تقديم فضيلة الشيخ /

أبي عبد الله طارق بن محمد الخياط البعداني اليمني

حفظه الله ورعاه

بسم الله الرحمن الرحيم

التعليق الثمين على تلخيص الحموية للشيخ العثيمين

تأليف الفقير إلى الله تعالى/

أبي فيروز عبد الرحمن بن سوكايا الإندونيسي الجاوي القدسي

-وفقه الله-

تقديم فضيلة الشيخ/

أبي عبد الله طارق بن محمد الخياط البعداني اليمني

-حفظه الله ورعاه-

مكتبة فيروز الديلمي



بسم الله الرحمن الرحيم

إذن طبع الكتاب من المعلق –وفقه الله-

الحمد لله وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله اللهم صل وسلم على محمد وآله أجمعين أما بعد:

فإن المؤلف المسمى: هاردي ويباوى بن سوكايا (أبا فيروز عبد الرحمن بن سوكايا الإندونيسي الجاوي القدمي)

قد أذن للأخ الكريم محب السنة والسلفية: أبي عبد الرحمن فيصل بن تونوت الإندونيسي السيمارنقي،

عنوان بيته:

Perum Rowo Asri Blok D١٠

RT: ٠٤/RW: ٠٦ Dusun Rowosari

Desa Karangjati Kecamatan Bergas Kabupaten Semarang

٠٨٢١٣٣٠٠٢٢٩٣

لطبع كتاب المؤلف : "التعليق الثمين على تلخيص الحموية للشيخ العثيمين"، على الاتفاق المعهود. وللمؤلف أن يطبع كتابه من غير اتفاق بينه وبين الأخ المذكور، على حسب الحاجة.

ولاية قدح بماليزيا، ٢٧ رجب ١٤٤٢ هـ.

كتبه المؤلف: أبو فيروز عبد الرحمن الإندونيسي القدمي

صورة تقديم فضيلة الشيخ/ أبي عبد الله طارق بن محمد الخياط البعداني -حفظه الله-

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الواحد الأحد المتفرد بالتوحيد والمنفرد بالتمجيد الذي لا تبلغه صفات العبيد ليس له مثل ولا نديد وهو المبدئ المعيد الفعال لما يريد جل عن اتخاذ الصواحب والأولاد وتقدس عن ملابسة الأجناس والأرجاس، ليست له عثرة تقال، ولا حد يضرب له مثال، لم يزل بصفاته أولًا قديرًا، ولا يزال عالمًا خبيرًا، استوى الأشياء علمه، ونفذت فيها إرادته، فلم تعزب عليه خفيات الأمور، ولم تغيره سوالف صروف الدهور، ولم يلحقه في شيء مما خلق كلال ولا تعب ولا مسه لغوب ولا نصب، خلق الأشياء بقدرته، ودبرها بمشيئته وقهرها بجبروته، وذللها بعزته، فذل لعظمته المتكبرون، واستكان لعز ربوبيته المتعظمون، وانقطع دون الرسوخ في علمه العالمون، وذلت له الرقاب وحارت في ملكوته فطن ذوي الألباب، وقامت بكلمته السماوات السبع، واستقرت الأرض المهاد، وثبتت الجبال الرواسي، وجرت الرياح اللواقح، وسار في جو السماء السحاب، وقامت على حدودها البحار، فنحمده كما حمد نفسه، وكما هو أهله ومستحقه وكما حمده الحامدون من جميع خلقه، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إقرارًا بوحدانيته وإخلاصًا لربوبيته، ونصلي ونسلم على المبعوث رحمة للعالمين خاتم الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين أما بعد

فقد قرأت الرسالة المسماة (التعليق الثمين على تلخيص الحموية للشيخ ابن عثيمين) للشيخ المبارك الوقور ذو الخلق الجم والسمت الحسن أبي فيروز عبد الرحمن بن سوكايا الإندونيسي وفقه الله وسدده وعصمه من الفتنة ما ظهر منها وما بطن فألفيته جمع كلامًا مفيدًا من شروحات أهل الشأن فزاد الرسالة جمالًا إلى جمالها وحسنًا إلى حسنها فجزاه الله خيرًا ونفع به الإسلام والمسلمين وعصمه من الحزبية الماحقة والحمد لله رب العالمين.

كتبه / أبو عبد الله طارق بن محمد الخياط

صبيحة [illegible] ٢٦/ رجب/ ١٤٤٦هـ

حسبي الله ونعم الوكيل

طارق بن محمد الخياط

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

نسخ تقديم فضيلة الشيخ/ أبي عبد الله طارق بن محمد الخياط البعداني ـحفظه الله-

الحمد لله الواحد الأحد المتفرد بالتوحيد والمنفرد بالتمجيد، الذي لا تبلغه صفات العبيد، ليس له مثل ولا نديد، وهو المبدئ المعيد الفعال لما يريد، جلّ عن اتخاذ الصواحب والأولاد، وتقدس عن ملابسة الأدناس والأرجاس، ليس له عترة تقال، ولا حد يضرب له مثال، لم يزل بصفاته أولاً قديراً، ولا يزال عالماً خبيراً، استوفى الأشياء علمه، ونفذت فيها إرادته، فلم تعزب عليه خفيات الأمور، ولم تغيره سوالف صروف الدهور، ولم يلحقه شيء مما خلق كلال ولا تعب ولا مسه لغوب ولا نصب، خلق الأشياء بقدرته، ودبرها بمشيئته، وقهرها بجبروته، وذللها بعزته، فذلّ لعظمته المتكبرون، واستكان لعزّ ربوبيته المتعظمون، وانقطع دون الرسوخ في علمه العالمون، وذلت له الرقاب، وحارت في ملكوته فطن ذوي الألباب، وقامت بحكمه السماوات السبع، واستقرت الأرض المهاد، وثبتت الجبال الرواسي، وجرت الرياح اللواقح، وسار في جو السماء السحابُ، وقامت على حدودها البحار.

نحمده كما حمد نفسه وكما هو أهله ومستحقه، وكما حمده الحامدون من جميع خلقه. وأشهد أنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له إقراراً بوحدانيته، وإخلاصاً لربوبيته. وأصلي وأسلم على المبعوث رحمة للعالمين خاتم الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فقد قرأت الرسالة المسمى: **(التعليق الثمين على تلخيص الحموية للشيخ ابن عثيمين)** للشيخ المبارك الوقور ذي الخلق الجمّ والسمت الحسن/ أبي فيروز عبد الرحمن بن سوكايا الإندونيسي –وفقه الله وسدده وعصمه من الفتن ما ظهر منها وما بطن، فألفيته جمع كلاماً مفيداً من شروحات أهل الشأن، فزاد الرسالة جمالاً وحسناً، فجزاه الله خيراً، ونفع به الإسلام والمسلمين، وعصمه من الحزبية المساخة.

والحمد لله رب العالمين.

كتبه:

أبو عبد الله طارق بن محمد الخياط

صبيحة يوم الأربعاء ٢٦ رجب ١٤٤٢ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف -وفقه الله-

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليماً كثيراً، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا الله حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾[١]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا الله الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ الله كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[٢]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا الله وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ الله وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾[٣]. أما بعد:

فإن خير الحديث كتاب الله وخير الهدى هدى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار.

فهذه تعاليق مهمة -بإذن الله تعالى- على "تلخيص الحموية" للإمام محمد بن صالح العثيمين رحمه الله. ولمراعاة اختصار هذه التعاليق لم أذكر هنا ترجمة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، لأنني قد ذكرتها في بعض الرسائل والكتب.

وسأذكر نبذة من ترجمة الإمام ابن عثيمين رحمه الله تعالى.

---

[١] سورة آل عمران: (١٠٢).

[٢] سورة النساء: (١).

[٣] سورة الأحزاب: (٧٠-٧١).

وأشكر الله تعالى على توفيقه وحلمه، وهو معبودي ليس لي معبود سواه، وله الحمد في الأولى والآخرة.

ثم أشكر لفضيلة شيخنا السلفي الثبت –بإذن الله–/ أبي عبد الله طارق بن محمد الخياط الإبي اليمني –حفظه الله تعالى–، على جميل نصرته وحسن تأييده، فأسأل الله الكريم الودود أن يجزيه خير الجزاء، وأن يزيده من فضله، وأن يفرّج عنه كل همومه وغمومه، وأن يبارك له في أهاله وذرياته، وأن يعيذهم كلهم من كل سوء ومكروه.

ترجمة مختصرة للإمام ابن عثيمين رحمه الله

جدير أن تُذكر في هذه الرسالة نبذة مختصرةمن ترجمة ومحاسن الشيخ الإمام الفقيه محمد بن صالح العثمين رحمه الله:

اسمه ونسبه :

هو أبو عبد الله محمد بن صالح بن محمد بن سليمان بن عبد الرحمن بن عثمان بن عبدالله بن عبدالرحمن بن أحمد بن مقبل من آل مقبل من آل ريِّس الوهيبي التميمي ، وجده الرابع عثمان أطلق عليه عثيمين فاشتهر به ، وهو من فخذ وهبه من تميم نزح أجداده من الوشم إلى عنيزة .

ومولده:

كان مولده في ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان المبارك عام ١٣٤٧هـ، في مدينة عنيزة – إحدى مدن القصيم– بالمملكة العربية السعودية.

وصفه :

قصير القامة معتدل الجسد ـ إلا في مرضه الأخير فقد هزل جدّاً ـ ذو لحية طويلة إلى صدره بيضاء ـ ما كان يحنيها ـ أبيض البشرة بشوش دائما طلق الوجه له نفس شاب وقد بلغ السبعين ،

نشأته العلمية:

تعلم الكتابة وشيئاً من الأدب والحساب والتحق بإحدى المدارس وحفظ القرآن عن ظهر قلب في سن مبكرة، وكذا مختصرات المتون في الحديث والفقه.

ثم درس على فضيلة الشيخ العلامة عبدالرحمن بن ناصر السعدي - رحمه الله - وقد توسم فيه شيخه النجابة والذكاء وسرعة التحصيل فكان به حفياً ودفعه إلى التدريس وهو لا يزال طالباً في حلقته.

ولما فتح المعهد العلمي بالرياض أشار عليه بعض إخوانه أن يلتحق به فاستأذن شيخه عبد الرحمن السعدي فأذن له فالتحق بالمعهد العلمي في الرياض سنة ١٣٧٢هـ وانتظم في الدراسة سنتين انتفع فيهما بالعلماء الذين كانوا يدرسون في المعهد حينذاك ، والتقى هناك بسماحة الشيخ عبدالعزيز ابن باز ـ رحمه الله ـ ويعتبر سماحة الشيخ عبد العزيز ابن باز شيخه الثاني في التحصيل والتأثر به .

وتخرج من المعهد العلمي ثم تابع دراسته الجامعية انتساباً حتى نال الشهادة الجامعية من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في الرياض.

شيوخه :

١ – جده من جهة أمه عبد الرحمن بن سليمان الدامغ –رحمه الله– درس عليه القران الكريم

.

٢- فضيلة الشيخ العلامة عبدالرحمن بن ناصر السعدي ـ رحمه الله ـ ويعتبر الشيخ عبدالرحمن السعدي شيخه الأول الذي نهل من معين علمه وتأثر بمنهجه وتأصيله واتباعه للدليل وطريقة تدريسه .

٣- سماحة الإمام العلامة عبد العزيز بن عبد الله بن باز -رحمه الله- فقرأ عليه في المسجد من صحيح البخاري ومن رسائل شيخ الإسلام بن تيمية وانتفع منه في علم الحديث والنظر في آراء فقهاء المذاهب والمقارنة بينها .

٤- الشيخ محمد بن عبد العزيز المطوع -رحمه الله- .

٥- قرأ على الشيخ عبد الرحمن بن علي بن عودان -رحمه الله- في علم الفرائض حال ولايته القضاء في عنيزة.

٦- قرأ على الشيخ عبد الرزاق عفيفي -رحمه الله- في النحو والبلاغة أثناء وجوده في عنيزة.

٧- الإمام العلامة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي ـ رحمه الله ـ

٨- الشيخ عبد العزيز بن ناصر بن رشيد ـ رحمه الله ـ

٩- الشيخ عبد الرحمن الأفريقي.

١٠- قرأ على سماحة الشيخ عبدالله بن عقيل العقيل في الفقه وغيرهم.

زواجه :

تزوج ـ رحمه الله ـ ثلاث مرات الأولى : ابنة عمه بنت سليمان بن محمد العثيمين التي توفيت أثناء الولادة ، ثم تزوج بعد وفاتها من ابنة الشيخ عبدالرحمن بن الزامل العفيسان وظلت معه خمس سنوات لم ينجب منها فطلقها، ثم تزوج بنت محمد بن إبراهيم التركي وهي أم أولادة ، ولم يجمع بين زوجتين .

أعماله ونشاطه العلمي:

* بدأ التدريس منذ عام ١٣٧٠هـ في الجامع الكبير بعنيزة في عهد شيخه عبد الرحمن السعدي وبعد أن تخرج من المعهد العلمي في الرياض عين مدرساً في المعهد العلمي بعنيزة عام ١٣٧٤هـ.

* وفي سنه ١٣٧٦هـ توفي شيخه عبدالرحمن السعدي فتولى بعده إمامة المسجد بالجامع الكبير في عنيزة والخطابة فيه والتدريس بمكتبة عنيزة الوطنية التابعة للجامع والتى أسسها شيخه عام ١٣٥٩هـ .

* ولما كثر الطلبة وصارت المكتبة لا تكفيهم صار يدرس في المسجد الجامع نفسه واجتمع إليه طلاب كثيرون من داخل المملكة وخارجها حتى كانو يبلغون المئات وهؤلاء يدرسون دراسة تحصيل لا لمجرد الاستماع - ولم يزل مدرساً في مسجده وإماماً وخطيباً حتى توفي - رحمه الله-.

* استمر مدرساً بالمعهد العلمي في عنيزة حتى عام ١٣٩٨هـ وشارك في آخر هذه الفترة في عضوية لجنة الخطط ومناهج المعاهد العلمية في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية وألف بعض المناهج الدراسية.

* ثم لم يزل أستاذاً بفرع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالقصيم بكلية الشريعة وأصول الدين منذ العام الدراسي ١٣٩٨-١٣٩٩هـ حتى توفي -رحمه الله-.

* درّس في المسجد الحرام والمسجد النبوي في مواسم الحج وشهر رمضان والعطل الصيفية.

* شارك في عدة لجان علمية متخصصة عديدة داخل المملكة العربية السعودية.

* ألقى محاضرات علمية داخل المملكة وخارجها عن طريق الهاتف.

* تولى رئاسة جمعية تحفيظ القرآن الكريم الخيرية في عنيزة منذ تأسيسها عام ١٤٠٥هـ حتى وفاته -رحمه الله-

* كان عضواً في المجلس العلمي بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية للعامين الدراسيين ١٣٩٨ - ١٣٩٩ هـ و ١٣٩٩ - ١٤٠٠ هـ.

* كان عضواً في مجلس كلية الشريعة وأصول الدين بفرع الجامعة بالقصيم ورئيساً لقسم العقيدة فيها.

* كان عضواً في هيئة كبار العلماء بالمملكة العربية السعودية منذ عام ١٤٠٧هـ حتى وفاته -رحمه الله-

وكان بالإضافة إلي أعماله الجليلة والمسؤوليات الكبيرة حريصاً على نفع الناس بالتعليم والفتوى وقضاء حوائجهم ليلاً ونهاراً حضراً وسفراً وفي أيام صحته ومرضه -رحمه الله تعالى رحمة واسعة-

كما كان يلزم نفسه باللقاءات العلمية والاجتماعية النافعة المنتظمة المجدولة كما سبق ذكرها .فكان يعقد اللقاءات المنتظمة الأسبوعية مع قضاة منطقة القصيم وأعضاء هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في عنيزة ومع خطباء مدينة عنيزة ومع كبار طلابه ومع الطلبة المقيمين في السكن ومع أعضاء مجلس إدارة جمعية تحفيظ القران الكريم ومع منسوبي قسم العقيدة بفرع جامعة الإمام بالقصيم.

وكان يعقد اللقاءات العامة كاللقاء الأسبوعي في منزله واللقاء الشهري في مسجده واللقاءات الموسمية السنوية التي كان يجدولها خارج مدينته فكانت حياته زاخرة بالعطاء والنشاط والعمل الدؤوب وكان مباركا في علمه الواسع أينما توجه كالغيث من السماء أينما حل نفع.

أعلن فوزه بجائزة الملك فيصل العالية لخدمة الإسلام للعام الهجري ١٤١٤هـ

وذكرت لجنة الاختيار في حيثيات فوز الشيخ بالجائزة ما يلي:-

أولاً : تحليه بأخلاق العلماء الفاضلة التي من أبرزها الورع ورحابة الصدر وقول الحق والعمل لمصلحة المسلمين والنصح لخاصتهم وعامتهم.

ثانياً : انتفاع الكثيرين بعلمه تدريساً وإفتاءً وتأليفاً.

ثالثاً : إلقاؤه المحاضرات العامة النافعة في مختلف مناطق المملكة.

رابعاً : مشاركته المفيدة في مؤتمرات إسلامية كبيرة.

خامساً: اتباعه أسلوباً متميزاً في الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة وتقديمه مثلاً حياً لمنهج السلف الصالح فكراً وسلوكاً.

ولقد آتاه الله سبحانه وتعالى ملكة عظيمة لاستحضار الآيات والأحاديث لتعزيز الدليل واستنباط الأحكام والفوائد فهو في هذا المجال عالم لا يشق له غبار في غزارة علمه ودقة استنباطه للفوائد والأحكام وسعة فقهه ومعرفته بأسرار اللغة العربية وبلاغتها.

أمضى وقته ـ رحمه الله ـ في التعليم والتربية والإفتاء والبحث والتحقيق وله اجتهادات واختيارات موفقة ، لم يترك لنفسه وقتاً للراحة حتى إذا سار على قدميه من منزله إلى المسجد وعاد إلى منزله فإن الناس ينتظرونه ويسيرون معه يسألونه فيجيبهم ويسجلون إجاباته وفتاواه.

كان للشيخ -رحمه الله- أسلوب تعليمي رائع فريد فهو يسأل ويناقش ليزرع الثقة في نفوس طلابه ويلقي الدروس والمحاضرات في عزيمة ونشاط وهمة عالية ويمضي الساعات يلقي دروسه ومحاضراته وفتاواه بدون ملل ولا ضجر بل يجد في ذلك متعته وبغيته من أجل نشر العلم وتقريبه للناس.

ويعتنى بتوجيه طلبة العلم وإرشادهم واستقطابهم والصبر على تعليمهم وتحمل أسئلتهم المتعددة والاهتمام بأمورهم.

وأخيراً توجت جهوده العلمية وخدمته العظيمة التي قدمها للناس في مؤلفاته العديدة ذات القيمة العلمية من كتب ورسائل وشروح للمتون العلمية طبقت شهرتها الآفاق وأقبل عليها طلبة العلم في أنحاء العالم وقد بلغت مؤلفاته أكثر من تسعين كتاباً ورسالة ثم لا ننسى تلك الكنوز العلمية الثمينة المحفوظة في أشرطة الدروس والمحاضرات فإنها تقدر بآلاف الساعات فقد بارك الله تعالى في وقت هذا العالم الجليل وعمره نسأل الله تعالى أن يجعل كل خطوة خطاها في تلك الجهود الخيرة النافعة في ميزان حسناته يوم القيامة.

ملامح من مناقبه وصفاته الشخصية:

كان الشيخ رحمه الله تعالى قدوة صالحة وأنموذجاً حياً فلم يكن علمه مجرد دروس ومحاضرات تلقى على أسماع الطلبة وإنما كان مثالاً يحتذى في علمه وتواضعه وحلمه وزهده ونبل أخلاقه.

تميز بالحلم والصبر والجلد والجدية في طلب العلم وتعليمه وتنظيم وقته والحفاظ على كل لحظة من عمره كان بعيداً عن التكلف وكان قمة في التواضع والأخلاق الكريمة والخصال الحميدة وكان بوجهه البشوش اجتماعياً يخالط الناس ويؤثر فيهم ويدخل السرور إلى قلوبهم ترى السعادة تعلو محياه وهو يلقي دروسه ومحاضراته - رحمه الله تعالى - كان حريصاً على تطبيق السنة في جميع أموره.

كان رحمه الله عطوفاً مع الشباب يستمع إليهم ويناقشهم ويمنحهم الوعظ والتوجيه بالرفق واللين والإقناع .

ومن ورعه أنه كان كثير التثبت فيما يفتي ولا يتسرع في الفتوى قبل أن يظهر له الدليل فكان إذا أشكل عليه أمر من أمور الفتوى يقول : انتظر حتى أتأمل المسألة، وغير ذلك من العبارات التي توحي بورعه وحرصه على التحرير الدقيق للمسائل الفقهية.

لم تفتر عزيمته في سبيل نشر العلم حتى أنه في رحلته العلاجية إلي الولايات المتحدة الأمريكية قبل ستة أشهر من وفاته نظم العديد من المحاضرات في المراكز الإسلامية والتقى بجموع المسلمين من الأمريكيين وغيرهم ووعظهم وأرشدهم كما أمهم في صلاة الجمعة.

وكان يحمل همّ الأمة الإسلامية وقضاياها في مشارق الأرض ومغاربها وقد واصل -رحمه الله تعالى- مسيرته التعليمية والدعوية بعد عودته من رحلته العلاجية فلم تمنعه شدة المرض من الاهتمام بالتوجيه والتدريس في الحرم المكي حتى قبيل وفاته بأيام.

أصابه المرض فتلقى قضاء الله بنفس صابرة راضية محتسبة، وقدم للناس نموذجاً حياً صالحاً يقتدي به لتعامل المؤمن مع المرض المضني، نسأل الله تعالى أن يكون في هذا رفعة لمنزلته عند رب العالمين.

كان رحمه الله يستمع إلى شكاوى الناس ويقضي حاجاتهم قدر استطاعته وقد خصص لهذا العمل الخيري وقتاً محدداً في كل يوم لاستقبال هذه الأمور وكان يدعم جمعيات البر وجمعيات تحفيظ القرآن بل قد من الله عليه ووفقه لجميع أبواب البر والخير ونفع الناس فكان شيخناً بحق مؤسسة خيرية اجتماعية وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

طلابه :

هم بحمد الله كثيرون سواء من تلقى عنه مباشرة وهؤلاء إما طال بهم المقام أو قصر سواء في القصيم ـ الجامع والجامعة ـ أو في الحرم المكي ، أو عن طريق الكتب والأشرطة ، وكثير من طلاب العلم يقدمون كتب الشيخ وأشرطته لغزارة ما يلقي من العلم ولتجرده للدليل ، ولحسن أسلوبه في التعليم ولا أعرف أحدا يباريه في التدريس. وقد بلغ الشيخ وليد الحسن بطلاب الشيخ ٧٤ طالبا وهؤلاء أكثر الطلاب ملازمة للشيخ ، وذكر من القضاة ١٨ قاضيا وقرأ فيها : الطرق الحكمية لإبن القيم ثم كتاب الوقف والوصايا من الإقناع للحجاوي ثم كتاب إعلام الموقعين لإبن القيم وتمت هذه الكتب إلا عشر صفحات من الإعلام لمرض الشيخ ـ رحمه الله ـ، وذكر من أساتذة الجامعة ٢٥ أستاذا وقرأ فيها : حادى الأرواح لإبن القيم ، وذكر من خطباء الجوامع ٢١ خطيبا وقرأ فيها : زاد المعاد ، وذكر من أعضاء الحسبة ٤٠ عضوا وقرأ فيها كتاب الحسبة لشيخ الإسلام .

مؤلفاته :

بلغ بها الشيخ وليد الحسن ١١٥ مؤلف بين كتاب صغير ومجلدات كبيرة وهي :

١ - مجموع فتاوى الشيخ ، ويحوى المجموع حسبما أمر الشيخ كل مؤلفات الشيخ التي تبلغ مجلدين فأقل ، وبلغت خمسة عشر مجلد وقد تصل إلى ثلاثين مجلدا .

٢ - تخريج أحاديث الروض المربع . لم يطبع

٣- الشرح الممتع على زاد المستقنع ، وهو أكبر مؤلفات الشيخ وأكثرها نفعا وفيها يظهر دقة علم الشيخ وقد يصل إلى ستة عشر مجلد .

٤ - فتاوى منار الإسلام . ثلاث مجلدات

٥ - نيل الأرب من قواعد ابن رجب . لم يطبع

٦ - القواعد المثلى . وهو من كتب الصفات الجيدة

٧- القول المفيد على كتاب التوحيد . ثلاث مجلدات

٨ - فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام .

٩ - شرح العقيدة الواسطية . مجلدان

١٠ - شرح رياض الصالحين . سبع مجلدات

وغيرها كثير.

عقبه :

الذكور : خمسة هم

عبدالله : موظف في جامعة الملك سعود .

عبدالرحمن : ضابط في وزارة الدفاع .

إبراهيم : ضابط في الحرس الملكي .

عبدالعزيز : ضابط في الجوازات .

عبدالرحيم : موظف في الخطوط السعودية .

ولم يطلب العلم أحد من أبناءه عليه ـ رحمه الله ـ ، وله ثلاث بنات تزوجتْ ثنتان منهم باثنين من طلابه وهما الشيخ سامي الصقير والشيخ خالد المصلح .

مواقف للشيخ :

دخل على الشيخ ـ رحمه الله ـ صبي دون السادسة من عمره وهو بين طلابه وأمسك بيده وقال : أبي يريد السلام عليك قبل سفره فلاطفه الشيخ والطفل آخذ بيده حتى بلغ به والده فتعجب من هذا الخلق النبيل .

ركب الشيخ مع أحد محبيه وكانت سيارة الرجل كثيرة الأعطال فتوقفت فيهم أثناء الطريق فنزل الشيخ وقال للرجال: أنت ابق مكانك وأنا أدفع السيارة !! فدفعها ـ رحمه الله ـ حتى تحركت بهم.

وقال مدير المعهد العلمي في عنيزة سابقاً فيقول: احتجت مبلغاً من المال فاقترضت من الشيخ ـ رحمه الله ـ وذكرت له أنني محتاج المبلغ لأنني سأسافر للرياض فقال لي: بي رغبة بالسفر للرياض هل تأخذني معك؟ فأخذته معي وكانت المواصلات صعبة في تلك الفترة ، فلما وصلنا أصرّ الشيخ على دفع مبلغ مقابل السفر ، فرفضت بشدة فقال: لو أنني ما أقرضتك لكان الأمر هينا ولكن أخشى أن يكون قرضاً جر نفعاً!!

وعندما طلب أحد الفضلاء منه الإذن بطباعة ترجمته وكان ذلك في منزل سماحة الشيخ عبدالله ابن عقيل، فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ للطالب: لا مانع لدي سأقدِّم لك على أن تطبعه مفردا ، فقال له الطالب: كما تحب يا شيخ ، فمسك يده ولفها للخلف وهو يتبسم ضاحكاً وقال: أكيد ، فقال الطالب : أكيد ... أكيد، فرحمه الله من أب شفيق ومعلم رحيم ومرب ودود .

وفاته رحمه الله تعالى:

رزئت الأمة الإسلامية جميعها قبيل مغرب يوم الأربعاء الخامس عشر من شهر شوال سنة ١٤٢١هـ بإعلان وفاة الشيخ العلامة محمد بن صالح العثيمين بمدينة جدة بالمملكة العربية السعودية وصلى على الشيخ في المسجد الحرام بعد صلاة العصر يوم الخميس السادس عشر من شهر شوال سنة ١٤٢١هـ الآلاف المؤلفة وشيعته إلي المقبرة في مشاهد عظيمة لا تكاد توصف ثم صلي عليه من الغد بعد صلاة الجمعة صلاة الغائب في جميع مدن المملكة و في خارج المملكة جموع أخرى لا يحصيها إلا باريها، ودفن بمكة المكرمة رحمه الله رحمة واسعة، وأسكنه فسيح جناته، وجزاه عما قدم للإسلام والمسلمين خيراً.

ونسأل الله أن يعوض المسلمين بفقده خيراً. والحمد لله على قضائه وقدره، وإنا لله وانا إليه راجعون وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله أجمعين إلى يوم الدين .

(انتهى من "ترجمة الشيخ محمد العثيمين"/ ص ١-١٠).

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة صاحب التلخيص -رحمه الله-

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد، فإن الله تعالى بعث محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق رحمةً للعالمين وقدوةً للعاملين وحجةً على العباد أجمعين، فأدى الأمانة وبلغ الرسالة ونصح الأمة،

وبيَّن للناس جميع ما يحتاجون إليه في أصول دينهم وفروعه[٤]،

---

[٤] عن سلمان رضي الله عنه قال: قيل له –وفي رواية: قال لنا المشركون–: إني أري صاحبكم يعلمكم حتى يعلمكم الخراءة. فقال: **أجل إنه نهانا أن يستنجي أحدنا بيمينه أو يستقبل القبلة ونهى عن الروث والعظام وقال لا يستنجي أحدكم بدون ثلاثة أحجار**. (أخرجه مسلم (٢٦٢).

قال شيخ الإسلام رحمه الله: فكل ما يحتاج الناس إلى معرفته واعتقاده والتصديق به من هذه المسائل فقد بينه الله ورسوله بيانا شافياً قاطعاً للعذر. إذ هذا من أعظم ما بلغه الرسول البلاغ المبين، وبينه للناس وهو من أعظم ما أقام الله به الحجة على عباده فيه بالرسل الذين بينوه وبلغوه. وكتاب الله الذي نقل الصحابة ثم التابعون عن الرسول لفظه ومعانيه، والحكمة التي هي سنة رسول الله التي نقلوها أيضا عن الرسول مشتملة من ذلك على غاية المراد وتمام الواجب والمستحب. والحمد لله الذي بعث إلينا رسولاً من أنفسنا يتلو علينا آياته ويزكينا ويعلمنا الكتاب والحكمة؛ الذي أكمل لنا الدين وأتم علينا النعمة ورضي لنا الإسلام ديناً؛ الذي أنزل الكتاب تفصيلاً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى. ("مجموع الفتاوى" / ٣/ ص٢٩٥).

فلم يدع خيراً إلا بيَّنه وحثّ عليه، ولم يترك شراً إلا حذر الأمة عنه[٥]، حتى ترك أمته على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها[٦].

فسار عليها أصحابه نيِّرة مضيئة، وتلقاها عنهم كذلك القرون المفضلة، حتى تجهم الجو بظلمات البدع المتنوعة التي كاد[٧] بها مبتدعوها الإسلام وأهله[٨]،

---

[٥] أخرجه مسلم في صحيحه برقم (١٨٤٤) عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «**ما من نبي إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم وينذرهم شر ما يعلمه لهم**».

[٦] **حديث صحيح**، أخرجه ابن ماجه في سننه برقم (٤٢) عن العرباض بن سارية رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «**تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك**».

[٧] قال أبو هلال العسكري رحمه الله: قال أهل العربية: الكيد التدبير على العدو وإرادة إهلاكه. ("الفروق اللغوية" / ص ٢١٣).

[٨] فالبدعة هي طريقة –عقدية أو قولية أو فعلية– مخترعة في الدين ليست من شريعة رسول الله ﷺ ولا من سنة الصحابة رضي الله عنهم.

قال الجوهري رحمه الله: والبدعة: الحدث في الدين بعد الإكمال. ("الصحاح في اللغة"/ ١/ ص٣٥).

وقال الإمام الشاطبي رحمه الله: فالبدعة إذن عبارة عن طريقة في الدين مخترعة تضاهي الشرعية يقصد بالسلوك عليها المبالغة في التعبد لله سبحانه، وهذا على رأي من لا يدخل العادات في معنى البدعة، وإنما يخصها بالعبادات. وأما على رأي من أدخل الأعمال العادية في معنى البدعة فيقول : البدعة طريقة في الدين مخترعة تضاهي الشرعية يقصد بالسلوك عليها ما يقصد بالطريقة الشرعية. ("الاعتصام"/ ص ٢٦).

وقال الإمام أبو شامة رحمه الله: وهو ما لم يكن في عصر النبي مما فعله أو أقر عليه أو علم مع قواعد شريعته الإذن فيه وعدم النكير عليه نحو ما سنشرحه في الفصل الآتي عقيب هذا الفصل، وفي معنى ذلك ما كان في عصر الصحابه رضى الله عنهم مما أجمعوا عليه قولا أو فعلا أو تقريراً. ("الباعث على إنكار البدع والحوادث"/ ص ٢٠).

وقال شيخ الإسلام رحمه الله: فالبدعة ضد الشرعة، والشرعة ما أمر الله به ورسوله أمر إيجاب أو أمر استحباب، وإن لم يفعل على عهده كالاجتماع في التراويح على إمام واحد وجمع القرآن في المصحف. وقتل أهل الردة والخوارج ونحو ذلك . وما لم يشرعه الله ورسوله، فهو بدعة وضلالة : مثل تخصيص مكان أو زمان باجتماع على عبادة فيه كما خص الشارع أوقات الصلوات وأيام الجمع والأعياد . وكما خص مكة بشرفها والمساجد الثلاثة وسائر المساجد بما شرعه فيها من الصلوات وأنواع العبادات كل بحسبه؛ وبهذا التفسير يظهر الجمع بين أدلة الشرع من النصوص والإجماعات، فإن المراد بالبدعة ضد الشرعة وهو ما لم يشرع في الدين، فمتى ثبت بنص أو إجماع في فعل أنه مما يحبه الله ورسوله، خرج بذلك عن أن يكون بدعة. ("مجموع الفتاوى"/ ٢٣ / ص١٣٣-١٣٤).

وقال الإمام ابن كثير رحمه الله: وأما أهل السنة والجماعة فيقولون في كل فعل وقول لم يثبت عن الصحابة: هو بدعة؛ لأنه لو كان خيرا لسبقونا إليه، لأنهم لم يتركوا خصلة من خصال الخير إلا وقد بادروا إليها. ("تفسير القرآن العظيم"/ ٧/ ص٢٧٨-٢٧٩).

وصاروا يتخبطون فيها خبط عشواء[٩]، ويبنون معتقداتهم على نسج العنكبوت[١٠].

والرب تعالى يحمي دينه بأوليائه الذين وهبهم من الإيمان والعلم والحكمة ما به يصدّون هؤلاء الأعداء ويرُدّون كيدهم في نحورهم، فما قام أحد ببدعة إلا قيّض الله – وله الحمد – من أهل السنة من يدحض بدعته ويبطلها[١١].

---

[٩] قال الجوهري رحمه الله: خبط البعير الأرض بيده خبطا: ضربها. ومنه قيل: خبط عشواء، وهي الناقة التي في بصرها ضعف، تخبط إذا مشت، لا تتوقى شيئاً. ("الصحاح في اللغة" / ١/ ص١٦١).

[١٠] قال الإمام الشنقيطي رحمه الله: فأي غناء لإنسان في بيت العنكبوت . ("أضواء البيان" / ٨/ ص ٢٠٧).

[١١] قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى : الحمد لله الذي جعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم يدعون من ضل إلى الهدى ويصبرون منهم على الأذى يحيون بكتاب الله الموتى ويبصرون بنور الله أهل العمى فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه وكم من ضال تائه قد هدوه فما أحسن أثرهم على الناس وأقبح أثر الناس عليهم ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين الذين عقدوا ألوية البدعة وأطلقوا عقال الفتنة...إلخ. ("الرد على الزنادقة والجهمية" / ص ٥٢/ دار المنهاج).

قال الإمام ابن شاهين -رحمه الله-: إن البلاء - إذا وقع في الدين - لا يزول أبداً، ولكن له زمان يقل المتكلمون به ، وزمان يكثر المتكلمون به، ويبقى أصله فلا يزول، فيجعل الله بحذاء ذلك قوماً متمسكين بالسنن، رادين للبدع، فيردون باطل كلامهم بالكتاب والسنة، فهم مصابيح الدجى، وأعلام الهدى، بعلمهم يستنار، وبفضلهم يقال. ("شرح مذاهب أهل السنة"/ لابن شاهين/ ص ٤٥).

وقال شيخ الإسلام رحمه الله: إن هذه الأمة ولله الحمد لم يزل فيها من يتفطن لما في كلام أهل الباطل من الباطل ويرده وهم لما هداهم الله به يتوافقون فى قبول الحق ورد الباطل رأيا ورواية من غير تشاعر ولا تواطؤ اهـ ("مجموع الفتاوى" / ٩ / ص ٢٣٣/ مكتبة ابن تيمية).

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله: وكلما أظهر الشيطان بدعة من هذه البدع وغيرها : أقام الله لها من حزبه وجنده من يردها ، ويحذر المسلمين منها، نصيحة لله ولكتابه ولرسوله ، ولأهل الإسلام . وجعله ميراثا يعرف به حزب رسول الله ﷺ وولي سننه ، من حزب البدعة وناصرها اهـ. ("تهذيب سنن أبي داود"/ كتاب السنة/ في القدر/ ضمن "عون المعبود" / ١١/ ص ٢٩٨-٢٩٩/ دار الكتب العلمية).

وقال ابن الجوزي رحمه الله: ولما لم يمكن أحد أن يدخل في القرآن شيئاً ليس منه أخذ أقوام يزيدون في حديث رسول الله ﷺ وينقصون ويبدلون ويضعون عليه ما لم يقل، فأنشأ الله عز وجل علماء يذبون عن النقل، ويوضحون الصحيح ويفضحون القبيح، وما يخلى الله عز وجل منهم عصرا من

العصور، غير أن هذا النسل قد قل في هذا الزمان ... إلخ. (مقدمة "الموضوعات" / ١ / ص٧/ ط. مكتبة أضواء السلف).

وقال علماء اللجنة الدائمة برياسة الإمام ابن باز رحمه الله: ومن فضل الله -عز وجل- على هذه الأمة أنه يقيض في كل عصر من العلماء الراسخين من يقوم في وجه كل بدعة تشوه جمال الدين، وتعكر صفوه، وتزاحم السنة أو تقضي عليها، وهذا تحقيق لوعد الله بحفظ دينه وشرعه في قوله سبحانه: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾، وقول النبي ﷺ في الحديث الثابت في الصحاح والسنن والمسانيد وغيرها : «**لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله، لا يضرها من خذلهم أو خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون على الناس**»، وله ألفاظ أخرى. ("فتاوى اللجنة الدائمة" / ١٢/ ص ٣٨٣-٣٨٤).

وقال الإمام الوادعي -رحمه الله-: ومن فضل الله أنه لا يقوم مبتدع إلا ويقوم أهل العلم عليه اهـ ("تحفة المجيب" / ص٢٧٧/ دار الآثار).

وقال رحمه الله: يتآمرون على أهل سنة رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ما أشبه الليلة بالبارحة، بالبارحة أبو الهذيل محمد بن محمد، وإبراهيم النظام، وعمرو بن عبيد، وواصل بن عطاء، هؤلاء همّهم الوحيد هو حرب سنة رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ولكن أين جاءوا؟ ماتوا وبقيت سنة رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم. وكم من إمام من أئمة اليمن نصب حربًا للسنة ولأهل السنة كالهادي وعبدالله بن حمزة وأحمد بن سليمان ويحيى شرف الدين، وبعد ذلك أين جاءوا ماتوا وماتت فكرتهم وبقيت سنة رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم. وصدق ربنا إذ يقول: ﴿**إِنَّا**

وكان في مقدِّمة القائمين على هؤلاء المبتدعةِ شيخُ الإسلام تقي الدين أحمدُ بنُ عبد الحليم بنِ عبد السلام ابنِ تيمية الحرّاني ثم الدمشقي، المولودُ في حرّان يوم الإثنين الموافقِ ١٠ ربيع الأول سنة ٦٦١ هجرية، والمتوفى محبوساً ظلماً في قلعة دمشق في ذي القَعدة سنة ٧٢٨ هجرية.

وله المؤلفات الكثيرة في بيان السنة وتوطيد أركانها وهدم البدع. ومما ألفه في هذا الباب رسالة (الفتوى الحموية) التي كتبها جواباً لسؤال ورد عليه في سنة ٦٩٨ هجرية من حماةَ بلدٍ في الشام، يُسأَل فيه عما يقوله الفقهاء وأئمة الدين في آيات الصفات وأحاديثها، فأجاب بجواب يقع في حواليَّ ٨٣ صفحة.

وحصل له بذلك محنة وبلاء، فجزاه الله تعالى عن الإسلام والمسلمين أفضل الجزاء.

نحن نزّلنا الذّكر وإنّا له لحافظون﴾، الله حفظ الذكر وقيض رجالاً يحفظونه. (تحفة المجيب/ ص٣٨٧-٣٨٨/ ط. دار الآثار).

وبعد أن ذكر سعي الإمام الألباني والإمام الوادعي رحمهما الله وسائر أهل الحديث في محاربة أهل الباطل، قال شيخنا المحدث المجاهد يحيى بن علي الحجوري حفظه الله: هؤلاء هم الرجال، كلما ظهر رجل ببدعة خبّطوه. وأما الآن إذا تكلم أهل الحديث في شخص لبدعته قال الناس: هؤلاء يتكلمون في الناس! (سجلت في تاريخ ٦ شعبان ١٤٣٠ هـ).

قال فضيلة الشيخ الفوزان حفظه الله: ... هذه العقيدة قد جرى عليها وعلى أهلها من الامتحان ما جرى ويجري في مختلف العصور كما هو واقع ومشاهد الآن من خصومها، ولكن **قد قيض الله الأئمة المصلحين والمجددين يذبون عنها تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين**...إلخ. ("مقالات الشيخ الفوزان"/ ١/ ٥٠-٥١/ المكتبة الشاملة).

ولما كان فهم هذا الجواب والإحاطةُ به مما يشق على كثير من قرائه، أحببت أن ألخص المهم منه مع زيادات تدعو الحاجة إليها، وسميته (فتحُ ربّ البرية بتلخيص الحموية). وقد طبعته لأول مرة في سنة ١٣٨٠ هجرية. وها أنا أعيد طبعه للمرة الثانية، وربما غيرت ما رأيت من المصلحة تغييره من زيادة أو حذف. والله أسأل أن يجعل عملنا خالصاً لوجهه ونافعاً لعباده إنه جواد كريم.

الباب الأول: فيما يجب على العبد في دينه

الواجب على العبد في دينه هو اتباع ما قاله الله وقاله رسوله محمدٌ ﷺ والخلفاءُ الراشدون المهديون من بعده من الصحابة والتابعين لهم بإحسان(١٢).

وذلك أن الله بعث محمداً ﷺ بالبينات والهدى، وأوجب على جميع الناس أن يؤمنوا به، ويتبعوه ظاهراً وباطناً، فقال تعالى: ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً الذي له ملك السماوات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون﴾(١٣).

---

(١٢) قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ الله وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة/ ١٣٧]، وقال الله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ الله عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة/ ١٠٠].

(١٣) هذا هو الواجب. قال الله تعالى: ﴿فَآمِنُوا بِالله وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَالله بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [التغابن: ٨].

قال الإمام الآجري رحمه الله: إن الله عز وجل أقام نبيه ﷺ مقام البيان عنه ، فقال عز وجل: ﴿**وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون**﴾ [النحل: ٤٤] فكان مما بينه لأمته: أن الله عز وجل أوجب عليهم الطهارة والصلاة في كتابه ، ولم يخبره بأوقات الصلاة ، ولا بعدد الركوع، ولا بعدد السجود ، ولا بما يجوز من القراءة فيها وما تحريمها؟ وما تحليلها؟ ولا كثير من أحكامها ، فبين ﷺ مراد الله عز وجل من ذلك ، وكذلك أوجب الزكاة في كتابه ، ولم يبين: كم في الورق؟ ولا كم في الذهب؟ ولا كم في الغنم؟ ولا كم في الإبل؟ ولا كم في البقر؟ ولا كم في الزرع والثمر؟ فبين النبي ﷺ مراد الله عز وجل من ذلك ، وكذلك الصيام بين ما يحل فيه للصائم ، وما يحرم عليه فيه ، وكذلك فرض الله عز وجل الحج على عباده على من استطاع إليه سبيلا ، ولم يخبر عز وجل كيف الإهلال بالحج؟ ولا ما يلزم المحرم من كثير من الأحكام؟ فبينه ﷺ حالا بعد حال ، وكذلك أحكام الجهاد ، وكذلك أحكام البيع والشراء وكذلك حرم الله عز وجل الربا على المسلمين وتوعدهم عليه بعظيم من العقاب ولم يبين لهم في الكتاب: كيف الربا؟ فبينه لهم الرسول ﷺ ، وهذا في كثير من الأحكام ، مما يطول شرحه، لم يعقل ما في الكتاب إلا ببيان الرسول ﷺ ، زيادة من الله عز وجل لنبيه ﷺ ، فيما أعطاه من الفضائل التي شرفه بها ، ثم فرض على جميع الخلق طاعته ، وحرم عليهم معصيته ، وذلك في غير موضع من كتابه، قرن طاعة رسوله ﷺ إلى طاعته عز وجل ، وأعلمهم أنه من عصى رسولي فقد عصاني، قال الله عز وجل: ﴿**قل أطيعوا الله والرسول ، فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين**﴾ [آل عمران: ٣٢] وقال عز وجل: ﴿**واتقوا النار التي أعدت للكافرين ، وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون**﴾ [آل عمران: ١٣١]

وقال عز وجل: ﴿**تلك حدود الله ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ، وذلك الفوز العظيم ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها ، وله عذاب مهين**﴾ [النساء: ١٣] وقال تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم ، فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا**﴾ [النساء: ٥٩] وقال عز وجل: ﴿**يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ، ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون**﴾ [الأنفال: ٢٠] وقال عز وجل: ﴿**يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم**﴾ [محمد: ٣٣] ، ثم قال عز وجل: ﴿**من يطع الرسول فقد أطاع الله**﴾ [النساء: ٨٠].

قال محمد بن الحسين رحمه الله: وهذا في القرآن كثير في نيف وثلاثين موضعا أوجب طاعة رسوله ، وقرنها مع طاعته عز وجل ، ثم حذر خلقه مخالفة رسوله ﷺ وأن لا يجعلوا أمر نبيه ﷺ إذا أمرهم بشيء ، أو نهاهم عن شيء كسائر الخلق وأعلمهم عظيم ما يلحق من خالفه من الفتنة التي تلحقه، فقال عز وجل: ﴿**لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا ، قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذاً**﴾ [النور: ٦٣] إلى آخر الآية ، ثم إن الله عز وجل أوجب على من حكم عليه النبي ﷺ حكما أن لا يكون في نفسه حرج أو ضيق لما حكم عليه الرسول ﷺ ، بل يسلم لحكمه ويرضى، فقال جل ذكره: ﴿**فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما**﴾ [النساء: ٦٥] والحرج هاهنا: أن لا يشك، ثم إن الله عز وجل أثنى على من رضي بما حكم له النبي ﷺ، وحكم عليه ورضي بما أعطاه من الغنيمة من قليل أو كثير، وذم من لم يرض، فقال عز وجل: ﴿**ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله ، وقالوا: حسبنا الله ، سيؤتينا الله من فضله ورسوله ، إنا إلى الله راغبون**﴾ [التوبة: ٥٩] ثم إن الله عز وجل أخبرنا عن أهل النار إذا هم دخلوها كيف يتأسفون على ترك طاعتهم لله ولرسوله لم لم يطيعوا الله ورسوله؟ فندموا حيث لم ينفعهم الندم وأسفوا حيث لم ينفعهم الأسف فقال جل ذكره: ﴿**يوم تقلب وجوههم في النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا**﴾ [الأحزاب: ٦٦] الآية.

(انتهى من "الشريعة"/ للآجري / ص١٣٩٢-١٣٩٧).

وقال النبي ﷺ: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها وعَضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثاتِ الأمور، فإن كل محدثة بدعة وكلَّ بدعة ضلالة»[١٤].

---

[١٤] **الحديث حسن لغيره**، أخرجه أبو داود (كتاب السنة/ في لزوم السنة/ (٤٥٩٤)/ عون المعبود/ دار الكتب العلمية) وغيره، عن العرباض بن سارية رضي الله عنه. وحسنه الإمام الوادعي رحمه الله في "الصحيح المسند" رقم (٩٢١)/ دار الآثار).

والسنة هنا طريقة رسول الله ﷺ، سواء كان قولاً أو فعلاً أو تقريراً أو وصفاً أو همّاً أو نحو ذلك.

قال الإمام محمد الصنعاني رحمه الله: وكثيراً ما تطلق السنة ويراد بها مجموع السيرة أي: كل ما جاء عنه صلى الله عليه وآله وسلم من أقواله وأفعاله وتقريره، وما همّ بفعله ... إلخ. ("صدع الدجنة"/ ص١٤-١٥/ دار الاستقامة).

والخلفاء الراشدون هم الذين خلفوا النبي ﷺ في العلم النافع والعمل الصالح[١٥].

[١٥] إن العلم النافع هو الهدى، والعملَ الصالحَ هو الرشد، وكلاهما سيمة النبي ﷺ وأصحابه. قال الله تعالى لنبيه: ﴿**وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * صِرَاطِ اللهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ**﴾ [الشورى/ ٥٢، ٥٣].

وخصلة هذا الصراط هي الجمع بين العلم بالحق والعمل به، كما في أواخر سورة الفاتحة، وكما في قول الله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ**﴾ [التوبة/ ٣٣].

قال شيخ الإسلام رحمه الله: فالهدى كمال العلم، ودين الحق كمال العمل، كقوله: ﴿**أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ**﴾ [ص/ ٤٥]. ("مجموع الفتاوى"/ ٢/ ص ٥٩).

واليهود وأشباههم تركوا العمل الصالح فغووا، والنصارى وأضرابهم تركوا طلب الهدى فضلّوا. قال شيخ الإسلام رحمه الله: فالعلم النافع هو أصل الهدى. والعمل بالحق هو الرشاد. وضدّ الأول الضلال، وضد الثاني الغيّ. ("التحفة العراقية"/ ص٥٦/ الدار الدمشقية).

وهتان الخصلتان من خصال رسول الله ﷺ حيث قال فيه الله تعالى: ﴿**مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى**﴾ [النجم/ ٢].

وأحق الناس بهذا الوصف هم الصحابة -رضي الله عنهم- ، فإن الله اختارهم لصحبة نبيه ﷺ وإقامة دينه[١٦]**،**

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: فـ: ﴿**مَا ضَلَّ**﴾ دليل على كمال علمه ومعرفته، وأنه على الحق المبين. ﴿**وَمَا غَوَى**﴾ دليل على كمال رشده، وأنه أبرّ العالمين. فهو الكامل في علمه، وفي عمله. وقد وصف ﷺ بذلك خلفاءه من بعده وأمر باتباعهم على سنتهم فقال: «**عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي**» رواه الترمذي وغيره فالراشد ضد الغاوي والمهدي ضد الضال اهـ. ("مفتاح دار السعادة" / متابعة هدى الله/ ص ٤٠).

[١٦] إن السلف كانوا على الهدى المستقيم، وهم أكثر علماً وتقوى وقوة وفهماً على تنقيب الأمور وتدقيق المسألة من أهل الفلسفة. وقد رضي الله عن طريقة السلف وأمر عباده باتباعها. والأدلة على ذلك مشهورة معروفة.

وقال الإمام الأوزاعي رحمه الله: لو كان هذا خيراً ما خصصتم به دون أسلافكم، فإنه لم يدخر عنهم خير خبئ لكم دونهم لفضل عندكم، وهم أصحاب نبينا عليه الصلاة والسلام، والذين اختارهم الله عز وجل، وبعثه فيهم، ووصفه بهم فقال جل وعلا: ﴿**محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضوانا، سيماهم في وجوههم من أثر السجود**﴾ [الفتح: ٢٩] إلى آخر السورة. (أخرجه الآجري في "الشريعة" ((٣٠٦)/ دار الكتاب العربي) والخلال

ولم يكن الله تعالى ليختار - وهو العليم الحكيم - لصحبة نبيه إلا من هم أكمل الناس إيماناً وأرجحُهم عقولاً وأقومُهم عملاً وأمضاهم عزماً وأهداهم طريقاً. فكانوا أحق الناس أن يتبعوا بعد نبيهم ﷺ . ومن بعدهم أئمةُ الدين الذين عُرفوا بالهدى والصلاح[١٧].

في "السنة" (٦٧٢) وابن بطة في "الإبانة الكبرى" (١٢١٤) وصححه شيخنا أبو عمرو الحجوري حفظه الله).

[١٧] قد كتب رجل إلى عمر بن عبد العزيز يسأله عن القدر، فكتب: أما بعد، أوصيك بتقوى الله، والاقتصاد في أمره، واتباع سنة نبيه ﷺ، وترك ما أحدث المحدثون بعد ما جرت به سنته، وكفوا مؤنته، فعليك بلزوم السنة فإنها لك - بإذن الله - عصمة، ثم اعلم أنه لم يبتدع الناس بدعة إلا قد مضى قبلها ما هو دليل عليها أو عبرة فيها، **فإن السنة إنما سنها من قد علم ما في خلافها الخطإ والزلل والحمق والتعمق**. فارض لنفسك ما رضي به القوم لأنفسهم، فإنهم على علم وقفوا، وببصر نافذ كفوا، وهم على كشف الأمور كانوا أقوى، وبفضل ما كانوا فيه أولى، فإن كان الهدى ما أنتم عليه لقد سبقتموهم إليه ولئن قلتم إنما حدث بعدهم ما أحدثه إلا من اتبع غير سبيلهم ورغب بنفسه عنهم، فإنهم هم السابقون، فقد تكلموا فيه بما يكفي، ووصفوا منه ما يشفي، فما دونهم من مقصر، وما فوقهم من محسر، وقد قصر قوم دونهم فجفوا، وطمح عنهم أقوام فغلوا، وإنهم بين ذلك لعلى هدى مستقيم. (أخرجه أبو داود ((٤٦١٢) / ط. دار السلام)، والآجري في "الشريعة" برقم (٥٣٥)/ **سنده صحيح**).

ومعنى المحسر، أي: عاجز، وكالٌّ، ومنقطع.

الباب الثاني: فيما تضمنته رسالة النبي ﷺ من بيان الحق في أصول الدين وفروعه

رسالة النبي ﷺ تتضمن شيئين، هما العلم النافع والعمل الصالح، كما قال تعالى: ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾[١٨].

---

[١٨] قال الإمام ابن كثير رحمه الله: قال تعالى: ﴿**هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق**﴾ فالهدى: هو ما جاء به من الإخبارات الصادقة، والإيمان الصحيح، والعلم النافع -ودين الحق: هي الأعمال الصالحة الصحيحة النافعة في الدنيا والآخرة. ﴿**ليظهره على الدين كله**﴾ أي: على سائر الأديان، كما ثبت في الصحيح، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إن الله زوى لي الأرض مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملك أمتي ما زوي لي منها**». ("تفسير القرآن العظيم" / ٤/ ص ١٣٦).

وقال الإمام السعدي رحمه الله: ثم ذكر سبب الظهور والانتصار للدين الإسلامي، الحسي والمعنوي، فقال: ﴿**هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ**﴾ أي: بالعلم النافع والعمل الصالح. بالعلم الذي يهدي إلى الله وإلى دار كرامته، ويهدي لأحسن الأعمال والأخلاق، ويهدي إلى مصالح الدنيا والآخرة.

﴿وَدِينِ الْحَقِّ﴾ أي: الدين الذي يدان به، ويتعبد لرب العالمين الذي هو حق وصدق، لا نقص فيه، ولا خلل يعتريه، بل أوامره غذاء القلوب والأرواح، وراحة الأبدان، وترك نواهيه سلامة من الشر والفساد فما بعث به النبي ﷺ من الهدى ودين الحق، أكبر دليل وبرهان على صدقه، وهو برهان باق ما بقي الدهر، كلما ازداد العاقل تفكرا، ازداد به فرحا وتبصراً.

﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ أي: ليعليه على سائر الأديان، بالحجة والبرهان، ويظهر أهله القائمين به بالسيف والسنان، فأما نفس الدين، فهذا الوصف ملازم له في كل وقت، فلا يمكن أن يغالبه مغالب، أو يخاصمه مخاصم إلا فلجه وبلسه، وصار له الظهور والقهر، وأما المنتسبون إليه، فإنهم إذا قاموا به، واستناروا بنوره، واهتدوا بهديه، في مصالح دينهم ودنياهم، فكذلك لا يقوم لهم أحد، ولا بد أن يظهروا على أهل الأديان، وإذا ضيعوه واكتفوا منه بمجرد الانتساب إليه، لم ينفعهم ذلك، وصار إهمالهم له سبب تسليط الأعداء عليهم، ويعرف هذا، من استقرأ الأحوال ونظر في أول المسلمين وآخرهم.

(انتهى من "تيسير الكريم الراحمن"/ للسعدي / ص ٨٥٩- ٨٦٠).

فالهدى هو العلم النافع، ودين الحق هو العمل الصالح الذي اشتمل على الإخلاص لله، والمتابعةِ لرسوله ﷺ. والعلم النافع يتضمن كل علم يكون للأمة فيه خير وصلاح في معاشها ومعادها[١٩].

---

(١٩) قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (**قام فينا رسول الله مقاماً فذكر بدء الخلق، حتى دخل أهل الجنة منازلهم وأهل النار منازلهم، حفظ ذلك من حفظه ونسيه من نسيه**). (رواه البخاري في "صحيحه" (٣١٦٢)).

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: أي: أخبرنا عن مبتدأ الخلق شيئاً بعد شيء إلى أن انتهى الإخبار عن حال الاستقرار في الجنة والنار. ووضع الماضي موضع المضارع مبالغة للتحقق المستفاد من خبر الصادق، وكان السياق يقتضي أن يقول: (حتى يدخل). ودلّ ذلك على أنه أخبر في المجلس الواحد بجميع أحوال المخلوقات منذ ابتدئت إلى أن تفنى، إلى أن تبعث، فشمل ذلك الإخبار عن المبدأ والمعاش والمعاد، وفي تيسير إيراد ذلك كله في مجلس واحد من خوارق العادة أمر عظيم. ويقرب ذلك مع كون معجزاته لا مرية في كثرتها أنه ﷺ أعطى جوامع الكلم. ("فتح الباري" / لابن حجر / ٦/ ص ٢٩٠-٢٩١).

وأولُ ما يدخل في ذلك العلمُ بأسماء الله وصفاته وأفعاله. فإن العلم بذلك أنفع العلوم، وهو زُبدة الرسالة الإلهية وخلاصة الدعوة النبوية، وبه قوام الدين قولاً وعملاً واعتقاداً[٢٠].

ومن أجل هذا كان من المستحيل أن يهمله النبي ﷺ ولا يبينَه بياناً ظاهراً ينفي الشك ويدفع الشبهة. وبيان استحالته من وجوه:

الأول: أن رسالة النبي ﷺ كانت مشتملة على النور والهدى، فإن الله بعثه بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، حتى ترك أمته على المحجة البيضاء ليلُها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك[٢١]، وأعظم النور وأبلغه ما يحصل للقلب بمعرفة الله وأسمائه وصفاته وأفعاله، فلا بد أن يكون النبي ﷺ قد بينه غايةَ البيان.

---

[٢٠] قال الإمام ابن القيم رحمه الله: فإن العلم بالله وأسمائه وصفاته هو أشرف العلوم على الإطلاق، وهو مطلوب لنفسه مراد لذاته. ("مفتاح دار السعادة" / ١/ ص ١٧٨).

[٢١] قال الإمام محمد ابن الأمير الصنعاني رحمه الله: (**قد تركتكم**) أيها المخاطبون من أمة الإجابة. (**على البيضاء**) في لفظ "على المحجة البيضاء، وهي جادة الطريق. (**ليلها**) في إشراقه. (**كنهارها**) المراد أنه لا

الثاني: أن النبي ﷺ علّم أمته جميع ما تحتاج إليه من أمور الدين والدنيا، حتى آدابَ الأكل والشرب والجلوس والمنام وغير ذلك[٢٢].

قال أبو ذر – رضي الله عنه – : «لقد توفي رسول الله ﷺ وما طائرٌ يقلب جناحيه إلا ذكر لنا منه علماً»[٢٣].

لبس فيها ولا ريب بل قد اتضحت إيضاح النهار، ومنه يعلم أنه لا لبس في دين الله ولا يحتاج إلى تكلفات المتكلمين وشطحات المتهوكين. (**لا يزيغ عنها بعدي**) لا يميل عنها إلى غيرها. (**إلا هالك**) محكوم عليه بالهلاك، أُتي من قبل نفسه. ("التنوير شرح الجامع الصغير" / ٨/ ص ٤٩).

[٢٢] هذا الدين شامل كامل. وقال الإمام ابن القيم رحمه الله: فقد بيّن الله سبحانه على لسان رسوله بكلامه، وكلام رسوله جميع ما أمر به، وجميع ما نهى عنه، وجميع ما أحلّه، وجميع ما حرّمه، وجميع ما عفا عنه، وبهذا يكون دينه كاملا كما قال تعالى: ﴿**اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي**﴾، ولكن قد يقصر فهم أكثر الناس عن فهم ما دلت عليه النصوص، وعن وجه الدلالة، وموقعها وتفاوت الأمة في مراتب الفهم عن الله ورسوله لا يحصيه إلا الله. ("إعلام الموقعين"/ ١/ ص٣٣٢).

[٢٣] **الحديث ضعيف لاضطراب فطر بن خليفة**. أخرجه الطبراني في "المعجم الكبير" (١٦٤٧) من طريق سفيان بن عيينة عن فطر عن أبي الطفيل عن أبي ذر رضي الله عنه.

ولا ريب أن العلم بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله داخلٌ تحت هذه الجملة العامة، بل هو أول ما يدخل فيها لشدة الحاجة إليه[٢٤].

قال الإمام الدارقطني رحمه الله في هذا الحديث: يرويه بن عيينة عن فطر بن خليفة عن أبي الطفيل عن أبي ذر.

وقيل: عن الثوري أيضا، **وليس بصحيح عنه**. وغير بن عيينة يرويه عن فطر عن منذر الثوري عن أبي ذر **مرسلاً** وهو الصحيح. وقال شعبة والثوري وابن نمير عن الأعمش عن منذر الثوري عن أشياخ لهم عن أبي ذر. حدثنا أبو ذر أحمد بن محمد بن أبي بكر الواسطي والحسين بن إسماعيل المحاملي قالا ثنا عيسى بن أبي حرب قال: ثنا يحيى بن أبي بكير ثنا سفيان الثوري عن فطر عن أبي الطفيل عن أبي ذر بذلك. ("علل الدارقطني" / ٦/ ص ٢٩٠).

[٢٤] قال الإمام ابن القيم رحمه الله بعد ذكر مراتب حاجات العباد: ومعلوم أن حاجتهم إلى معرفة ربهم وفاطرهم ومعبودهم جل جلاله فوق مراتب هذه الحاجات كلها، فإنه لا سعادة لهم ولا فلاح ولا صلاح ولا نعيم إلا بأن يعرفوه ويعبدوه، ويكون هو وحده غايةَ مطلوبهم ونهايةَ مرادهم، وذكرُه والتقربُ إليه قرةَ عيونهم وحياة قلوبهم. فمتى فقدوا ذلك كانوا أسوأ حالاً من الأنعام بكثير، وكانت الأنعام أطيب عيشاً منهم في العاجل وأسلم عاقبة في الآجل. ("الصواعق المرسلة"/ ١/ ص ١٠١).

الثالث: أن الإيمان بالله تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله هو أساس الدين وخلاصة دعوة المرسلين، وهو أوجب وأفضل ما اكتسبته القلوب وأدركته العقول. فكيف يهمله النبي ﷺ من غير تعليم ولا بيان، مع أنه كان يعلّم ما هو دونه في الأهمية والفضيلة؟![٢٥]

---

[٢٥] إن النبي يوصف بالحكمة، وقد أمره الله تعالى بالدعوة إلى الله بالحكمة. فلا يمكن أن يكون الحكيم يدعو الناس إلى الله ولم يعرِّفهم بالله وعرّفهم آداب الضيافة وقضاء الحاجة وغير ذلك. ولا يمكن يهمل الحكيم أهمّ الأمور وهو مهتمّ بما هو دون ذلك.

فعن ابن عباس -رضي الله عنهما-: أن النبي صلى الله عليه على آله وسلم لما بعث معاذا -رضي الله عنه- إلى اليمن قال له: «**أول ما تدعوهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله**». (أخرجه البخاري (٤٣٤٧) ومسلم (١٩)).

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في شرحه عليه: وأما قول الخطابي: إن ذكر الصدقة آخر عن ذكر الصلاة لأنها إنما تجب على قوم دون قوم، وأنها لا تكرر تكرار الصلاة، فهو حسن. وتمامه أن يقال: **بدأ بالأهم فالأهم**، وذلك من التلطف في الخطاب، لأنه لو طالبهم بالجميع في أول مرة لم يأمن النفرة. ("فتح الباري" / لابن حجر / ٣/ ص٣٥٩).

الرابع: أن النبي ﷺ كان أعلمَ الناس بربه، وهو أنصحهم للخلق، وأبلغهم في البيان والفصاحة، فلا يمكن مع هذا المقتضي التامّ للبيان أن يتركَ باب الإيمان بالله وأسمائه وصفاته ملتبِساً مشتبِهاً.

الخامس: أن الصحابة - رضي الله عنهم - لا بد أن يكونوا قائلين بالحق في هذا الباب، لأن ضد ذلك إما السكوت وإما القول بالباطل، وكلاهما ممتنع عليهم[٢٦].

أما امتناع السكوت، فوجهه أن السكوت إما أن يكون عن جهل منهم بما يجب لله تعالى من الأسماء والصفات وما يجوز عليه منها وما يمتنع، وإما أن يكون عن علم منهم بذلك ولكن كتموه، وكل منهما ممتنع.

أما امتناع الجهل، فلأنه لا يمكن لأي قلب فيه حياةٌ ووعيٌ وطلبٌ للعلم ونهمةٌ في العبادة إلا أن يكون أكبرَ همه هو البحث في الإيمان بالله تعالى ومعرفتِه بأسمائه وصفاته وتحقيقُ ذلك علماً واعتقاداً. ولا ريبَ أن القرون المفضلةَ - وأفضلُهم الصحابة - هم أبلغ

[٢٦] بل الصحابة رضي الله عنهم أحرص الناس على العلم والخير. عن أبي هريرة رضي الله عنهم في حال الصحابة: وكانوا أحرص شيء على الخير. (أخرجه البخاري (٢٣١١)).

الناس في حياة القلوب ومحبة الخير وتحقيق العلوم النافعة، كما قال النبي ﷺ: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»[٢٧].

وهذه الخيريةُ تعم فضلهم في كل ما يقرب إلى الله من قول وعمل واعتقاد.

---

(٢٧) أخرجه البخاري (٢٦٥٢) ومسلم (٢٥٣٣)، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وأخرجه البخاري (٢٦٥١) ومسلم (٢٥٣٥) من حديث عمران بن حصين رضي الله عنهما مرفوعاً. وأخرجه مسلم (٢٥٣٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً. وأخرجه مسلم (٢٥٣٦) من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعاً.

قال المعلق –وفقه الله–: ومعنى كلام المؤلف رحمه الله هنا: إما كون خير القرون وأفضل الأمة يجهلون أصول الدين، أو يتكلمون فيها بغير الحق، وهذا ممتنع. كيف تكون القرون المفضلة بعد النبي ﷺ لم يحكموا هذا الأصل، أو جهلوه، أو تكلموا فيه بغير الحق؟ فلا بد أنهم قد أحكموا هذا الباب، وقد تكلموا فيه بالحق. وعلى هذا تكون أقوال أهل البدع الذين جاءوا بعد تلك القرون المفضلة، كلها أقوال باطلة ومردودة، ومناقضة لما عليه السلف الصالح المرضي عنهم عند رب العالمين.

ثم لو فرضنا أنهم كانوا جاهلين بالحق في هذا الباب، لكان جهلُ مَن بعدَهم من باب أولى[٢٨]. لأن معرفة ما يُثْبَت لله تعالى من الأسماء والصفات أو يُنفى عنه إنما تُتَلقى من طريق الرسالة، وهم الواسطة بين الرسول ﷺ وبين الأمة. وعلى هذا الفرض يلزم أن لا يكون عند أحد علمٌ في هذا الباب، وهذا ظاهر الامتناع.

وأما امتناع كتمان الحق، فلأن كلَّ عاقل منصفٍ عرف حال الصحابة -رضي الله عنهم- وحِرْصَهم على نشر العلم النافع وتبليغِه الأمةَ، فإنه لن يمكنه أن ينسب إليهم كتمان الحق، ولا سيّما في أوجب الأمور وهو معرفة الله وأسمائه وصفاته. ثم إنه قد جاء عنهم من قول الحق في هذا الباب شيء كثير يعرفه من طلبه وتتبعه.

وأما امتناع القول بالباطل عليهم فمن وجهين:

أحدهما: أن الباطلَ لا يمكن أن يقوم عليه دليل صحيح. ومن المعلوم أن الصحابةَ - رضي الله عنهم - أبعدُ الناس عن القول فيما لم يقم عليه دليل صحيح، خصوصاً في أمر

---

[٢٨] قال شيخ الإسلام رحمه الله: كلما كان عهد الإنسان بالسلف أقرب كان أعلم بالمعقول والمنقول. ("مجموع الفتاوى"/ ٣/ ص ٢٢٨).

الإيمان بالله تعالى وأمور الغيب، فهم أولى الناس بامتثال قوله تعالى: ﴿ولا تقف ما ليس لك به علم﴾[٢٩]**،**

وقولِه: ﴿قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثمَ والبغيَ بغير الحق وأن تشركوا بالله مالم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾[٣٠]**.**

---

[٢٩] بعد أن ذكر تفاسير أئمة لهذه الآية، قال الإمام ابن كثير رحمه الله: ومضمون ما ذكروه: أن الله تعالى نهى عن القول بلا علم، بل بالظن الذي هو التوهم والخيال، كما قال تعالى: ﴿**اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم**﴾ [الحجرات: ١٢]، وفي الحديث: «**إياكم والظن؛ فإن الظن أكذب الحديث**». وفي سنن أبي داود: «**بئس مطية الرجل: زعموا**»، وفي الحديث الآخر: «**إن أفرى الفرى أن يري عينيه ما لم تريا**». وفي الصحيح: «**من تحلم حلما كلف يوم القيامة أن يعقد بين شعيرتين، وليس بعاقد**». وقوله: ﴿**كل أولئك**﴾ أي: هذه الصفات من السمع والبصر والفؤاد ﴿**كان عنه مسئولا**﴾ أي: سيسأل العبد عنها يوم القيامة، وتسأل عنه وعما عمل فيها. ("تفسير القرآن العظيم" / ٥/ ص ٧٥).

[٣٠] قال الإمام ابن القيم رحمه الله: وهذا يعم القول عليه سبحانه بلا علم في أسمائه وصفاته وأفعاله وفي دينه وشرعه. وقال تعالى: ﴿**ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون متاع قليل ولهم عذاب أليم**﴾، فتقدم إليهم سبحانه

ثانيهما: أن القول الباطل إما أن يكون مصدره الجهل بالحق، وإما أن يكون مصدره إرادة ضلال الخلق. وكلاهما ممتنع في حق الصحابة – رضي الله عنهم –[٣١].

أما امتناع الجهل فقد تقدم بيانه. وأما امتناع إرادة ضلال الخلق، فلأن إرادة ضلال الخلق قصد سيئ لا يمكن أن يصدر من الصحابة الذين عُرفوا بتمام النصح للأمة ومحبةِ الخير لها[٣٢].

بالوعيد على الكذب عليه في أحكامه وقولهم لما لم يحرمه هذا حرام ولما لم يحله هذا حلال. وهذا بيان منه سبحانه أنه لا يجوز للعبد أن يقول هذا حلال وهذا حرام إلا بما علم أن الله سبحانه أحله وحرمه. ("إعلام الموقعين" / ١/ ص ٣٨).

[٣١] نعم، ممتنع أن يوصف عموم الصحابة بالجهل أو إرادة الباطل، لأن النبي ﷺ قد وصفهم بالهدى –وهو ضدّ الجهل–، والرشد –وهو ضد إرادة الباطل–، كما مر بنا في حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه.

[٣٢] قال الإمام ابن قدامة رحمه الله: فقد ثبت وجوب اتباع السلف رحمة الله عليهم بالكتاب والسنة والإجماع. والعبرة دلت عليه فإن السلف لا يخلوا من أن يكونوا مصيبين أو مخطئين. فإن كانوا مصيبين وجب اتباعهم لأن اتباع الصواب واجب، وركوب الخطأ في الاعتقاد حرام. ولأنهم إذا كانوا مصيبين

كانوا على الصراط المستقيم، ومخالفهم متبع لسبيل الشيطان الهادي إلى صراط الجحيم، وقد أمر الله تعالى باتباع سبيله وصراطه ونهى عن اتباع ما سواه فقال: ﴿**وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون**﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وإن زعم زاعم أنهم مخطئون كان قادحاً في حق الإسلام كله، لأنه إن جاز أن يخطئوا في هذا جاز خطؤهم في غيره من الإسلام كله، وينبغي أن لا تنقل الأخبار التي نقلوها، ولا تثبت معجزات النبي التي رووها، فتبطل الرواية، وتزول الشريعة. ولا يجوز لمسلم أن يقول هذا ولا يعتقده.

ولأن السلف رحمة الله عليهم لا يخلوا إما أن يكونوا علموا تأويل هذه الصفات أو لم يعلموه. فإن لم يعلموه فكيف علمناه نحن؟ وإن علموه فوسعهم أن يسكتوا عنه وجب أن يسعنا ما وسعهم. ولأن النبي من جملة سلفنا الذين سكتوا عن تفسير الآيات والأخبار التي في الصفات وهو حجة الله على خلق الله أجمعين يجب عليهم اتباعه ويحرم عليهم خلافه، وقد شهد الله تعالى بأنه على الصراط المستقيم، وأنه يهدي إليه، وأن من اتبعه أحبه الله ومن عصاه فقد عصا الله، ﴿**ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً** [الأحزاب: ٣٦]، ﴿**ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها وله عذاب مهين**﴾ [النساء: ١٤]. (انتهى من "ذم التأويل" / لابن قدامة/ ص ٣٥-٣٦).

ثم لو جاز عليهم سوء القصد فيما قالوه في هذا الباب، لجاز عليهم سوءُ القصد فيما يقولون في سائر أبواب العلم والدين، فتُعدَم الثقةُ بأقوالهم وأخبارهم في هذا الباب وغيره، وهذا من أبطل الأقوال، لأنه يستلزم القدحَ في الشريعة كلِّها.

وإذا تبين أن الصحابة -رضي الله عنهم- لا بدَّ أن يكونوا قائلين بالحق في هذا الباب، فإننا نقول: إما أن يكونوا قائلين ذلك بعقولهم، أو عن طريق الوحي. والأول ممتنع، لأن العقل لا يدرك تفاصيل ما يجب لله تعالى من صفات الكمال، فتعين الثاني وهو أن يكونوا تلقَّوا هذه العلومَ عن طريق رسالة النبي ﷺ [٣٣]. فيلزم على هذا أن يكون النبي ﷺ قد بين الحق في أسماء الله وصفاته، وهذا هو المطلوب.

---

[٣٣] عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، قال: أي سماء تظلني، وأي أرض تقلني إذا قلت في كتاب الله برأي. (أخرجه البيهقي في "شعب الإيمان" (٢٠٨٢)/ حسن لغيره).

الباب الثالث: في طريقة أهل السنة والجماعة في أسماء الله وصفاته

أهل السنة والجماعة هم الذين اجتمعوا على الأخذ بسنة النبي ﷺ والعملِ بها ظاهراً وباطناً في القول والعمل والاعتقاد[٣٤].

---

[٣٤] سموا أهل السنة لأنهم متمسكون بسنة النبي ﷺ ويتركون البدع.

قال الإمام أبو سعد عبد الكريم السمعاني رحمه الله: السُنِّي بضم السين المهملة وتشديد النون المكسورة، هذه النسبة إلى السنة التي هي ضد البدعة، ولما كثر أهل البدع خصوا جماعة بهذا الانتساب. ("الأنساب" / للسمعاني/ ٧/ ص٢٧٨).

وقال العلامة أبو إسحاق الشاطبي رحمه الله: ويطلق أيضاً في مقابلة البدعة؛ فيقال: "فلان على سنة" إذا عمل على وفق ما عمل عليه النبي ﷺ كان ذلك مما نص عليه في الكتاب أو لا، ويقال: "فلان على بدعة" إذا عمل على خلاف ذلك، وكأن هذا الإطلاق إنما اعتبر فيه عمل صاحب الشريعة؛ فأطلق عليه لفظ السنة من تلك الجهة، وإن كان العمل بمقتضى الكتاب. ("الموافقات"/ ٤/ ص٢٩٠).

والجماعة ضدّ الفرقة، والمراد بالجماعة اجتماع الصحابة على شيء لأنه صار حقّاً، ولأنهم لم يجتمعوا على ضلالة.

قال الإمام الطيبي رحمه الله: **المراد بالجماعة الصحابة ومن بعدهم من التابعين وتابعي التابعين من السلف الصالحين** ، أي آمركم بالتمسك بهديهم وسيرتهم والانخراط في زمرتهم اهـ. ("تحفة الأحوذي"/ كتاب الأمثال/ مثل الصلاة والصيام/ ٧ / ص ٢٨١/ دار الحديث).

سموا أهل الجماعة لأنهم متمسكون بمنهج جماعة الصحابة رضي الله عنهم ومن تبعهم بإحسان، وإن كانوا في بعض الأزمنة في غاية من الغربة لكثرة أهل الباطل والجهل.

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: واعلم أن الإجماع والحجة والسواد الأعظم هو العالم صاحب الحق وإن كان وحده وإن خالفه أهل الأرض. قال عمرو بن ميمون الأودي صحبت معاذا باليمن، فما فارقته حتى واريته في التراب بالشام، ثم صبحت من بعده أفقه الناس عبد الله بن مسعود فسمعته يقول: (**عليكم بالجماعة فإن يد الله مع الجماعة**). ثم سمعته يوماً من الأيام وهو يقول: (**سيولى عليكم ولاة يؤخرون الصلاة عن مواقيتها، فصلوا الصلاة لميقاتها فهي الفريضة، وصلوا معهم فإنها لكم نافلة**). قال: قلت: يا أصحاب محمد ما أدري ما تحدثون. قال: وما ذاك؟ قلت: تأمرني بالجماعة وتحضّني عليها، ثم تقول لي: صلّ الصلاة وحدك وهي الفريضة، وصلّ مع الجماعة وهي نافلة. قال: يا عمرو بن ميمون قد كنت أظنك من أفقه أهل هذه القرية. أتدري ما الجماعة؟ قلت: لا. قال: (إن جمهور الجماعة هم الذين فارقوا الجماعة. **الجماعة ما وافق الحق وإن كنت وحدك**). وفي لفظ آخر: فضرب على فخذي وقال: (ويحك، إن جمهور الناس فارقوا الجماعة، وإن الجماعة ما وافق طاعة الله تعالى).

وقال نعيم بن حماد: إذا فسدت الجماعة فعليك بما كانت عليه الجماعة قبل أن تفسد وإن كنت وحدك فإنك أنت الجماعة حينئذ. ذكرهما البيهقي وغيره .

وقال بعض أئمة الحديث وقد ذكر له السواد الأعظم فقال: أتدري ما السواد الأعظم؟ هو محمد بن أسلم الطوسي وأصحابه. فمُسخ المختلفون الذين جعلوا السواد الأعظم والحجة والجماعة هم الجمهور وجعلوهم عياراً على السنة وجعلوا السنة بدعة والمعروف منكراً لقلة أهله وتفردهم في الأعصار والأمصار. وقالوا: من شذ شذ الله به في النار. وما عرف المختلفون أن الشاذ ما خالف الحق وإن كان الناس كلهم عليه إلا واحدا منهم، فهم الشاذون. وقد شذّ الناس كلهم زمن أحمد بن حنبل إلا نفراً يسيراً، فكانوا هم الجماعة. وكانت القضاة حينئذ والمفتون والخليفة وأتباعه كلهم هم الشاذّون. وكان الإمام أحمد وحده هو الجماعة. ولما لم يتحمل هذا عقول الناس قالوا للخليفة: يا أمير المؤمنين أتكون أنت وقضاتك وولاتك والفقهاء والمفتون كلهم على الباطل، وأحمد وحده هو على الحق؟ فلم يتسع علمه لذلك فأخذه بالسياط والعقوبة بعد الحبس الطويل. فلا إله إلا الله ما أشبه الليلة بالبارحة وهي السبيل المهيع لأهل السنة والجماعة حتى يلقوا ربهم مضى عليها سلفهم وينتظرها خلفهم. **﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيل﴾** **[الأحزاب: ٢٣]**، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

(انتهى من "إعلام الموقعين"/ ٣ / ص٣٩٧-٣٩٨).

وطريقتهم في أسماء الله وصفاته كما يأتي:

أولاً: في الإثبات، فهي إثبات ما أثبته الله لنفسه في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ ، من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل[٣٥].

ثانياً: في النفي، فطريقتهم نفي ما نفاه الله عن نفسه في كتابه أوعلى لسان رسوله ﷺ، مع اعتقادهم ثبوتَ كمال ضده لله تعالى[٣٦].

---

[٣٥] وسئل –يعني: الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله– قبل موته بيوم عن أحاديث الصفات فقال: تمرّ كما جاءت، ويؤمن بها ولا يردّ منها شيء إذا كانت بأسانيد صحاح، ولا يوصف الله بأكثر مما وصف به نفسه، بلا حد ولا غاية ﴿**ليس كمثله شيء وهو السميع البصير**﴾. ("العقيدة" / رواية أبي بكر الخلال / ص ١٢٧).

[٣٦] قال شيخ الإسلام رحمه الله: وهذا أصل مستمرّ وهو: أن العدم المحض الذي لا يتضمن ثبوتاً لا مدح فيه ولا كمال، فلا يمدح الرب نفسه به بل ولا يصف نفسه به، وإنما يصفها بالنفي المتضمن معنى ثبوت كقوله: ﴿**لا تأخذه سنة ولا نوم**﴾، وقوله: ﴿**من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه**﴾، وقوله: ﴿**ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء**﴾، وقوله: ﴿**ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم**﴾ [سورة البقرة: ٢٥٥]، وقوله: ﴿**لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض**﴾ [سورة سبأ: ٣]، وقوله:

ثالثاً: فيما لم يَردْ نفيه ولا إثباته مما تنازع الناس فيه كالجسم والحَيْز والجهة ونحو ذلك، فطريقتهم فيه التوقفُ في لفظه فلا يثبتونه ولا ينفونه لعدم ورود ذلك، وأما معناه فيستفصلون عنه، فإن أريد به باطل - يُنَزَّه الله عنه - رَدُّوه، وإن أريد به حق - لا يمتنع - على الله قبلوه[٣٧].

﴿**وما مسنا من لغوب**﴾ [سورة ق: ٣٨]، ونحو ذلك من القضايا السلبية التي يصف الرب تعالى بها نفسه، وأنها تتضمن اتصافه بصفات الكمال الثبوتية، مثل كمال حياته، وقيوميته، وملكه وقدرته، وعلمه، وهدايته، وانفراده بالربوبية والإلهية ونحو ذلك. ("منهاج السنة النبوية" / ٢/ ص١٤٨).

[٣٧] قال شيخ الإسلام رحمه الله: وإنما المقصود: التنبيه على أن السلف كانوا يراعون لفظ القرآن والحديث فيما يثبتونه وينفونه عن الله من صفاته وأفعاله، فلا يأتون بلفظ محدث مبتدع في النفي والإثبات، بل كل معنى صحيح فإنه داخل فيما أخبر به الرسول ﷺ. والألفاظ المبتدعة ليس لها ضابط، بل كل قوم يريدون بها معنى غير المعنى الذي أراده أولئك؛ كلفظ الجسم، والجهة، والحيز، والجبر ونحو ذلك، بخلاف ألفاظ الرسول فإن مراده بها يعلم كما يعلم مراده بسائر ألفاظه. ولو يعلم الرجل مراده لوجب عليه الإيمان بما قاله مجملاً. ولو قدر معنى صحيح والرسول ﷺ لم يخبر به لم يحل لأحد أن يدخله في دين المسلمين، بخلاف ما أخبر به الرسول ﷺ فإن التصديق به واجب.

وهذه الطريقة هي الطريقة الواجبة، وهي القول الوسط بين أهل التعطيل وأهل التمثيل. وقد دل على وجوبها العقل والسمع.

فأما العقل، فوجه دلالته أن تفصيل القول فيما يجب ويجوز ويمتنع على الله تعالى لا يُدرك إلا بالسمع، فوجب اتباع السمع في ذلك بإثبات ما أثبته ونفي ما نفاه والسكوت عما سكت عنه(٣٨).

والأقوال المبتدعة تضمنت تكذيب كثير مما جاء به الرسول ﷺ، وذلك يعرفه من عرف مراد الرسول ﷺ ومراد أصحاب تلك الأقوال المبتدعة . ولما انتشر الكلام المحدث، ودخل فيه ما يناقض الكتاب والسنة، وصاروا يعارضون به الكتاب والسنة، صار بيان مرادهم بتلك الألفاظ وما احتجوا به لذلك من لغة وعقل، يبين للمؤمن ما يمنعه أن يقع في البدعة والضلال، أو يخلص منها إن كان قد وقع ويدفع عن نفسه في الباطن والظاهر ما يعارض إيمانه بالرسول ﷺ من ذلك.

(انتهى من "مجموع الفتاوى" / ٥/ ص ٤٣٢-٤٣٣).

(٣٨) قال الإمام ابن القيم رحمه الله: فأما طبّ القلوب فمسلَّم إلى الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، ولا سبيل إلى حصوله إلا من جهتهم وعلى أيديهم، فإن صلاح القلوب: أن تكون عارفة بربِّها وفاطرها

وأما السمع فمن أدلته قولُه تعالى: ﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون﴾[٣٩]،

وبأسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه، وأن تكون مؤْثرة لمرضاته ومحابه متجنبة لمناهيه ومساخطه. ولا صحة لها ولا حياة البتة إلا بذلك، ولا سبيل إلى تلقيه إلا من جهة الرسل. ("زاد المعاد" / ٤/ ص ٦).

[٣٩] قال الإمام ابن القيم رحمه الله: والإلحاد في أسمائه هو العدول بها وبحقائقها ومعانيها عن الحق الثابت لها. وهو مأخوذ من الميل، كما يدل عليه مادته ل ح د، فمنه: اللحد، وهو الشق في جانب القبر الذي قد مال عن الوسط.

ومنه: الملحد في الدين المائل عن الحق إلى الباطل. قال ابن السكيت: الملحد المائل عن الحق المدخل فيه ما ليس منه.

ومنه: الملتحد وهو مفتعل من ذلك وقوله تعالى: ﴿**ولن تجد من دونه ملتحداً**﴾ [الكهف: ٢٧] أي: من تعدل إليه وتهرب إليه وتلتجيء إليه وتبتهل فتميل إليه عن غيره. تقول العرب: (الْتحد فلان إلى فلان إذا عدل إليه). إذا عرف هذا، فالإلحاد في أسمائه تعالى أنواع.

أحدها: أن يسمى الأصنام بها كتسميتهم اللات من الإلهية والعزى من العزيز وتسميتهم الصنم إلها وهذا إلحاد حقيقة فإنهم عدلوا بأسمائه إلى أوثانهم وآلهتهم الباطلة.

الثاني: تسميته بما لا يليق بجلاله كتسمية النصارى له أبا وتسمية الفلاسفة له موجباً بذاته أو علة فاعلة بالطبع ونحو ذلك.

وثالثها: وصفه بما يتعالى عنه ويتقدس من النقائص كقول أخبث اليهود: (إنه فقير)، وقولهم: (إنه استراح بعد أن خلق خلقه)، وقولهم: ﴿**يد الله مغلولة**﴾ [المائدة: ٦٤] وأمثال ذلك مما هو إلحاد في أسمائه وصفاته.

ورابعها: تعطيل الأسماء عن معانيها وجحد حقائقها كقول من يقول من الجهمية وأتباعهم: (إنها ألفاظ مجردة لا تتضمن صفات ولا معاني) فيطلقون عليه اسم السميع والبصير والحي والرحيم والمتكلم والمريد، ويقولون: لا حياة له، ولا سمع، ولا بصر، ولا كلام، ولا إرادة تقوم به، وهذا من أعظم الإلحاد فيها عقلاً وشرعاً ولغة وفطرة، وهو يقابل إلحاد المشركين، فإن أولئك أعطوا أسماءه وصفاته لآلهتهم وهؤلاء سلبوه صفات كماله وجحدوها وعطلوها فكلاهما ملحد في أسمائه. ثم الجهمية وفروخهم متفاوتون في هذا الإلحاد فمنهم الغالي والمتوسط والمنكوب. وكل من جحد شيئا عما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله فقد ألحد في ذلك فليستقل أو ليستكثر.

وخامسها: تشبيه صفاته بصفات خلقه تعالى الله عما يقول المشبهون علواً كبيراً.

فهذا الإلحاد في مقابلة إلحاد المعطلة فإن أولئك نفوا صفة كماله وجحدوها وهؤلاء شبهوها بصفات خلقه فجمعهم الإلحاد ونفرقت بهم طرقه.

وقولُه: ﴿**ليس كمثله شيء وهو السميع البصير**﴾[٤٠]،

وبرأ الله أتباع رسوله وورثته القائمين بسنته عن ذلك كله فلم يصفوه إلا بما وصف به نفسه ولم يجحدوا صفاته ولم يشبهوها بصفات خلقه ولم يعدلوا بها عما أنزلت عليه لفظاً، ولا معنى بل أثبتوا له الأسماء والصفات ونفوا عنه مشابهة المخلوقات فكان إثباتهم بريئا من التشبيه وتنزيههم خلياً من التعطيل لا كمن شبه حتى كأنه يعبد صنماً أو عطل حتى كأنه لا يعبد إلا عدماً.

وأهل السنة وسط في النحل كما أن أهل الإسلام وسط في الملل توقد مصابيح معارفهم من ﴿**شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء**﴾ [النور: ٣٥]، فنسأل الله تعالى أن يهدينا لنوره ويسهل لنا السبيل إلى الوصول إلى مرضاته ومتابعة رسوله إنه قريب مجيب.

(انتهى من "بدائع الفوائد" / ١/ ص ١٧٩-١٨٠).

[٤٠] قال الإمام ابن القيم رحمه الله: فهذا الموصوف بهذه الصفات والنعوت والأفعال والعلو والعظمة والحفظ والعزة والحكمة والملك والحمد والمغفرة والرحمة والكلام والمشيئة والولاية وإحياء الموتى والقدرة التامة الشاملة والحكم بين عباده وكونه فاطر السموات والأرض ﴿**وهو السميع البصير**﴾ فهذا هو الذي ﴿**ليس كمثله شيء**﴾ لكثرة نعوته وأوصافه وأسمائه وأفعاله وثبوتها له على وجه الكمال الذي

وقولُه: ﴿ولا تقف ما ليس لك به علم﴾[٤١].

فالآية الأولى دلت على وجوب الإثبات من غير تحريف ولا تعطيل، لأنهما من الإلحاد، والآية الثانية دلت على وجوب نفي التمثيل، والآية الثالثة دلت على وجوب نفي التكييف، وعلى وجوب التوقف فيما لم يرد إثباته أو نفيه.

لا يماثله فيه شيء. فالمثبت للصفات والعلو والكلام والأفعال وحقائق الأسماء هو الذي يصفه سبحانه بأنه ليس كمثله شيء. ("الصواعق المرسلة" / ١/ ص٥١٠/ ط. المكتبة الرشد).

[٤١] بعد أن ذكر تفاسير أئمة لهذه الآية، قال الإمام ابن كثير رحمه الله: ومضمون ما ذكروه: أن الله تعالى نهى عن القول بلا علم، بل بالظن الذي هو التوهم والخيال، كما قال تعالى: ﴿**اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم**﴾ [الحجرات: ١٢]، وفي الحديث: «**إياكم والظن؛ فإن الظن أكذب الحديث**». وفي سنن أبي داود: «**بئس مطية الرجل: زعموا**»، وفي الحديث الآخر: «**إن أفرى الفرى أن يري عينيه ما لم تريا**». وفي الصحيح: «**من تحلم حلما كلف يوم القيامة أن يعقد بين شعيرتين، وليس بعاقد**». وقوله: ﴿**كل أولئك**﴾ أي: هذه الصفات من السمع والبصر والفؤاد ﴿**كان عنه مسئولا**﴾ أي: سيسأل العبد عنها يوم القيامة، وتسأل عنه وعما عمل فيها. ("تفسير القرآن العظيم" / ٥/ ص ٧٥).

وكل ما ثبت لله من الصفات فإنها صفات كمالٍ يُحمَد عليها ويُثنى بها عليه، وليس فيها نقص بوجه من الوجوه، فجميع صفات الكمال ثابتة لله تعالى على أكمل وجه[٤٢].

---

[٤٢] قال شيخ الإسلام رحمه الله في مقدمة أقوال أهل السنة: أن يعلم أن الكمال ثابت لله، بل الثابت له هو أقصى ما يمكن من الأكملية، بحيث لا يكون وجود كمال لا نقص فيه إلا وهو ثابت للرب تعالى يستحقه بنفسه المقدسة، وثبوت ذلك مستلزم نفي نقيضه؛ فثبوت الحياة يستلزم نفي الموت، وثبوت العلم يستلزم نفي الجهل، وثبوت القدرة يستلزم نفي العجز، وإن هذا الكمال ثابت له بمقتضى الأدلة العقلية والبراهين اليقينية، مع دلالة السمع على ذلك. ودلالة القرآن على الأمور نوعان :

أحدهما : خبر الله الصادق، فما أخبر الله ورسوله به فهو حق كما أخبر الله به .

والثاني : دلالة القرآن بضرب الأمثال وبيان الأدلة العقلية الدالة على المطلوب . فهذه دلالة شرعية عقلية؛ فهي شرعيةٌ لأن الشرع دل عليها، وأرشد إليها؛ و عقليةٌ لأنها تعلم صحتها بالعقل . ولا يقال : إنها لم تعلم إلا بمجرد الخبر . وإذا أخبر الله بالشيء، ودل عليه بالدلالات العقلية، صار مدلولاً عليه بخبره، ومدلولاً عليه بدليله العقلي الذي يعلم به، فيصير ثابتاً بالسمع والعقل، وكلاهما داخل في دلالة القرآن التي تسمى الدلالة الشرعية.

وكل ما نفاه الله عن نفسه فهو صفات نقصٍ تنافي كمالَه الواجبَ. فجميع صفات النقص ممتنعة على الله تعالى لوجوب كماله.

وما نفاه الله عن نفسه فالمراد به انتفاءُ تلك الصفةِ المنفيةِ وإثباتُ كمال ضدها، وذلك أن النفي لا يدل على الكمال حتى يكون متضمِناً لصفة ثبوتية يحمد عليها. فإن مجردَ النفي قد يكون سببَه العجزُ فيكون نقصاً، كما في قول الشاعر:

وثبوت معنى الكمال قد دل عليه القرآن بعبارات متنوعة، دالة على معاني متضمنة لهذا المعنى، فما في القرآن من إثبات الحمد له، وتفصيل محامده، وأن له المثل الأعلى، وإثبات معاني أسمائه، ونحو ذلك، كله دال على هذا المعنى.

-إلى قوله:- وهذه صفة لا تنبغي إلا له، ليس له كفؤ ولا كمثله شيء. وهكذا سائر صفات الكمال، ولم يعلم أحد من الأمة نازع في هذا المعنى، بل هذا المعنى مستقر في فطر الناس، بل هم مفطورون عليه، فإنهم كما أنهم مفطورون على الإقرار بالخالق، فإنهم مفطورون على أنه أجل وأكبر، وأعلى وأعلم وأعظم وأكمل من كل شيء .

(انتهى من "مجموع الفتاوى" / ٦/ ص ٧١-٧٢).

(قُبيِّلَةٌ لا يغدرون بذمة، ولا يظلمون الناس حبة خردل) [٤٣].

وقد يكون سببَه عدمُ القابلية، فلا يقتضي مدحاً، كما لو قلتَ: الجدار لا يظلم.

---

[٤٣] هو قول حطيئة لما هجا قومه بني عجلان:

إذا الله عادى أهلَ لُؤم ودِقَّة ... فعادَى بني العَجلان رهطَ ابن مُقبلِ

قُبيِّلَة لا يغدرون بذمَّة ... ولا يظلمون النَّاسَ حبَّة خَردلِ

ولا يرِدون الماءَ إلاَّ عشيَّة ... إذا صدرَ الوُرَّادُ عن كلِّ منهلِ.

قال مودود بن أبي الفضل الكردي –رحمه الله–: يريد أنهم لا يستطيعون أن يغدِروا ولا يظلِموا أحداً ولا يرِدون الماء حتَّى يصدر النَّاس عنه لضعفهم وذلَّتهم. ("الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين" / للكردي/ ص ٨).

وقال أبو عبيد البكري –رحمه الله– : إنهم لضعفهم وقلتهم ومهانتهم لا يقدرون على الغدر والظلم، هم أذلّ من ذلك وأقلّ. ("فصل المقال في شرح كتاب الأمثال" / للبكري/ ص ١٦٧).

إذا تبين هذا، فنقول: مما نفى الله عن نفسه الظلم، فالمراد به انتفاءُ الظلم عن الله مع ثبوت كمال ضده وهو العدل. ونفى عن نفسه اللُّغوب وهو التعب والإعياء، فالمراد نفي اللغوب مع ثبوت كمال ضده وهو القوة. وهكذا بقية ما نفاه الله عن نفسه، والله أعلم[٤٤].

التحريف

التحريف لغةً التغيير. وفي الاصطلاح تغيير النص لفظاً أو معنى[٤٥]. والتغيير اللفظي قد يتغير معه المعنى وقد لا يتغير، فهذه ثلاثة أقسام:

---

[٤٤] وكذلك نفي الجهل، فيه إثبات كمال العلم. قال الله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

[٤٥] وذلك من أباطيل اليهود ثم تبعها الجهمية والمعتزلة والأشعرية ونحوهم. قال الله تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ﴾ [النساء: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ –إلى قوله:– لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٤١].

١. تحريف لفظي يتغير معه المعنى، كتحريف بعضِهم قولَه تعالى: ﴿وكلم اللهُ موسى تكليماً﴾ إلى نصب الجلالة ليكون التكليم من موسى[٤٦].

٢. وتحريف لفظي لا يتغير معه المعنى، كفتح الدال من قوله تعالى: ﴿الحمدُ لله رب العالمين﴾. وهذا في الغالب لا يقع إلا من جاهل، إذ ليس فيه غرض مقصود لفاعله غالباً.

٣. وتحريف معنوي، وهوصرف اللفظ عن ظاهره بلا دليل. كتحريف معنى اليدين المضافتين إلى الله إلى القوة والنعمة ونحو ذلك[٤٧].

---

[٤٦] وذلك مردود بصريح قول الله تعالى: ﴿**وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ**﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وقوله سبحانه: ﴿**وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾ [الشعراء: ١٠]، وقوله جل وعلا: ﴿**وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا * وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا**﴾ [مريم: ٥١-٥٢].

[٤٧] وذلك مردود. قال الإمام الدارمي رحمه الله: ويستحيل أن يقال: في قول الله تبارك وتعالى: ﴿**بيدك الخير**﴾ [آل عمران: ٢٦] : بنعمتك الخير؛ لأن الخير نفسه هو النعم نفسها، ومستحيل أن يقال في قول الله عز وجل: ﴿**يد الله فوق أيديهم**﴾ [الفتح: ١٠] : نعمة الله فوق أيديهم ، وإنما ذكرنا هاهنا اليد مع ذكر الأيدي في المبايعة بالأيدي، فقال: ﴿**إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن**

التعطيل

التعطيل لغة التفريغ والإخلاء. وفي الاصطلاح -هنا- إنكار ما يجب لله تعالى من الأسماء والصفات، أو إنكار بعضه، فهو نوعان:

١. تعطيل كلي. كتعطيل الجهمية الذين ينكرون الصفات، وغلاتُهم ينكرون الأسماء أيضاً[٤٨].

نكث فإنما ينكث على نفسه﴾ [الفتح: ١٠] . ويستحيل أن يقال: ﴿**يداه مبسوطتان**﴾ [المائدة: ٦٤] : نعمتاه، فكأن ليس له إلا نعمتان مبسوطتان، لا تحصى نعمه، ولا تستدرك، فلذلك قلنا: إن هذا التأويل محال من الكلام. ("الرد على الجهمية"/ للدارمي / ص٢٠١).

[٤٨] والجهمية في الحقيقة يعبدون عدماً، لأن الذي لا صفة له البتة معدوم.

قال الإمام حماد بن زيد رحمه الله: مثل الجهمية مثل رجل قيل له : أفي دارك نخلة ؟ قال : نعم. قيل: فلها خوص ؟ قال : لا . قيل : فلها سعف. قال: لا . قيل : فلها كرب ؟ قال : لا . قيل : فلها جذع؟ قال : لا . قيل : فلها أصل؟ قال : لا . قيل : فلا نخلة في دارك . هؤلاء الجهمية ، قيل لهم : لكم رب ؟ قالوا : نعم . قيل : يتكلم ؟ قالوا : لا . قيل : فله يد ؟ قالوا : لا . قيل : فله قدم ؟ قالوا : لا .

٢. وتعطيل جزئي. كتعطيل الأشعرية الذين ينكرون بعض الصفات دون بعض[٤٩].

وأول من عرف بالتعطيل من هذه الأمة هو الجعد بن درهم.

التكييف

التكييف حكاية كيفية الصفة، كقول القائل: كيفية يد الله أو نزوله إلى السماء الدنيا كذا وكذا[٥٠].

قيل: فله إصبع ؟ قالوا: لا . قيل: فيرضى ويغضب ؟ قالوا: لا . قيل: فلا ربّ لكم. (صحيح، **سنده أئمة ثقات**. أخرجه الإمام ابن شاهين رحمه الله في "شرح مذاهب أهل السنة" برقم (٣٣)).

(٤٩) وذلك مردود، لأن الكلام في بعض الصفات كالكلام في بعض الأخرى.

قال الإمام ابن تيمية رحمه الله: القول في بعض الصفات كالقول في بعض. ("مجموع الفتاوى" / ٣/ ص ١٧).

فإذا كان الصفات السبع حقاً لله فكذلك بقية الصفات لأن الكل جاءت من عند الله، وهو الذي أخبرنا بها عن نفسه، فإذا آمنّا بصدق أخبار الله في تلك السبع، لزم أن نؤمن بالباقية لأن الله صادق في كل خبره وجميع أقواله.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: فظهر تناقض النفاة كيف صرفت عليهم الدلالات، وظهر تناقض من يثبت بعض الصفات دون بعض. ("مجموع الفتاوى" / ٦/ ص ٤٩).

(٥٠) وذلك لا يجوز كما سيأتي بيانه إن شاء الله.

التمثيل والتشبيه

التمثيل إثبات مثيل للشيء. والتشبيه إثبات مشابه له. فالتمثيل يقتضي المماثلة، وهي المساواةُ من كل وجه. والتشبيه يقضي المشابهة وهي المساواة في أكثر الصفات. وقد يطلق أحدهما على الآخر.

والفرق بينهما وبين التكييف من وجهين:

أحدهما: أن التكييف أن يُحكى كيفية الشيء، سواء كانت مطلقة أم مقيدة بشبيه. وأما التمثيل والتشبيه فيدلان على كيفية مقيدة بالمماثل والمشابه. ومن هذا الوجه يكون التكييف أعمَّ، لأن كل ممثِّلٍ مكيِّفٌ ولا عكس.

ثانيهما: أن التكييف يختص بالصفات، أما التمثيل فيكون في القدْر والصفة والذات، ومن هذا الوجهِ يكون أعمَّ لتعلقه بالذات والصفات والقدْر.

ثم التشبيه الذي ضلّ به من ضلّ من الناس على نوعين، أحدهما تشبيه المخلوق بالخالق، والثاني تشبيه الخالق بالمخلوق.

فأما تشبيه المخلوق بالخالق فمعناه إثبات شيء للمخلوق مما يختص به الخالق من الأفعال والحقوق والصفات. فالأول كفعل من أشرك في الربوبية ممن زعم أن مع الله خالقاً. والثاني كفعل المشركين بأصنامهم حيث زعموا أن لها حقاً في الألوهية فعبدوها مع الله. والثالث كفعل الغلاة في مدح النبي ﷺ أو غيره، مثلِ قول المتنبي يمدح عبد الله بنَ يحيى البُحتُري: (فكن كما شئت يا من لا شبيه له * وكيف شئت فما خلق يدانيكا).

وأما تشبيه الخالق بالمخلوق فمعناه أن يثبت لله تعالى في ذاته أو صفاته من الخصائص مثلَ ما يثبت للمخلوق من ذلك، كقول القائل: إن يديِ الله مثلُ أيدي المخلوقين[٥١]،

[٥١] قال الإمام ابن خزيمة -رحمه الله-: نحن نقول: لله (جل وعلا) يدان كما أعلمنا الخالق البارئ في محكم تنزيله وعلى لسان نبيه المصطفى، ونقول: كلتا يدي ربنا -عز وجل- يمين، على ما أخبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ونقول: إن الله -عز وجل- يقبض الأرض جميعاً بإحدى يديه، ويطوى السماء بيده الأخرى، وكلتا يديه يمين، لا شمال فيهما ، ونقول: من كان من بني آدم سليم الأعضاء والأركان مستوى التركيب لا نقص في يديه، أقوى بني آدم وأشدهم بطشاً له يدان. عاجز عن أن يقبض على قدر أقل من شعرة واحدة، من جزء من أجزاء كثيرة، على أرض واحدة من سبع أرضين.

ولو أن جميع من خلقهم الله من بني آدم إلى وقتنا هذا، وقضى خلقهم إلى قيام الساعة لو اجتمعوا على معونة بعضهم بعضا وحاولوا على قبض أرض واحدة من الأرضين السبع بأيديهم كانوا عاجزين عن ذلك غير مستطيعين له، وكذلك لو اجتمعوا جميعاً على طي جزء من أجزاء سماء واحدة لم يقدروا على ذلك، ولم يستطيعوا وكانوا عاجزين عنه، فكيف يكون يا ذوي الحجا من وصف يد خالقه بما بينا من القوة والأيدي، ووصف يد المخلوقين بالضعف والعجز مشبها، يد الخالق بيد المخلوقين؟، أو كيف يكون مشبهاً من يثبت أصابع على ما بينه النبي المصطفى للخالق البارئ؟

واستواءَه على عرشه كاستوائهم[٥٢]، ونحوِ ذلك.

وقد قيل: إن أول من عرف بهذا النوع هشام بن الحكم الرافضي، والله أعلم.

ونقول: «**إن الله (جل وعلا) يمسك السموات على أصبع، والأرضين على أصبع**» تمام الحديث.

ونقول: إن جميع بني آدم منذ خلق الله آدم إلى أن ينفخ في الصور لو اجتمعوا على إمساك جزء من أجزاء كثيرة من سماء من سمواته أو أرض من أراضيه السبع بجميع أبدانهم كانوا غير قادرين على ذلك، ولا مستطيعين له، بل عاجزين عنه، فكيف يكون من يثبت لله –عز وجل- يدين على ما ثبته الله لنفسه وأثبته له صلى الله عليه وآله وسلم مشبها يدي ربه بيدي بني آدم؟

(انتهى من "التوحيد"/ لابن خزيمة/ ١/ ص١٩١).

[٥٢] وذلك ليس بصواب، لأن إثبات الاستواء لله لا يستلزم تشبيهه بما في المخلوق، كما في إثبات الصفات السبع.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: فإن الله لما أخبر أنه بكل شيء عليم، وأنه على كل شيء قدير، واتفق أهل السنة وأئمة المسلمين على أن هذا على ظاهره، وأن ظاهر ذلك مراد: كان من المعلوم أنهم لم يريدوا بهذا الظاهر أن يكون علمه كعلمنا، وقدرته كقدرتنا، وكذلك لما اتفقوا على أنه حي حقيقة، عالم حقيقة، قادر حقيقة، لم يكن مرادهم أنه مثل المخلوق الذي هو حي عليم قدير، فكذلك إذا قالوا في قوله تعالى: ﴿**يحبهم ويحبونه**﴾ [المائدة: ٥٤] ﴿**رضي الله عنهم ورضوا عنه**﴾ [المائدة: ١١٩] وقوله: ﴿**ثم استوى على العرش**﴾ [الأعراف: ٥٤]، أنه على ظاهره، لم يقتض ذلك أن يكون ظاهره استواء كاستواء المخلوق، ولا حباً كحبه، ولا رضا كرضاه. ("مجموع الفتاوى" / ٣/ ص ٤٦).

الإلحاد

الإلحاد في اللغة الميل. وفي الاصطلاح الميل عما يجب اعتقاده أو عمله. وهو قسمان: أحدهما في أسماء الله، الثاني في آياته. فأما الإلحاد في أسمائه فهو العدول عن الحق الواجب فيها. وهو أربعة أنواع:

١ . أن ينكر شيئاً منها، أو مما دلت عليه من الصفات، كما فعل المعطلة.

٢ . أن يجعلها دالة على تشبيه الله بخلقه، كما فعل المشبهة.

٣ . أن يسميَ الله بما لم يسمّ به نفسه، لأن أسماء الله توقيفيةٌ، كتسمية النصارى له أباً وتسمية الفلاسفة إياه علةً فاعلة ونحوِ ذلك.

٤ . أن يشتق من أسمائه أسماءَ للأصنام، كاشتقاق اللات من الإله والعزى من العزيز.

وأما الإلحاد في آياته فيكون في الآيات الشرعية – وهي ما جاءت به الرسل من الأحكام والأخبار – ويكون في الآيات الكوني – وهي ما خلقه الله ويخلقه في السموات والأرض–.

فأما الإلحاد في الآيات الشرعية فهو تحريفها أو تكذيب أخبارها أو عصيان أحكامها.

وأما الإلحاد في الآيات الكونية فهو نسبتها إلى غير الله أو اعتقاد شريك أو معين له فيها.

الباب الرابع: في بيان صحة مذهب السلف وبطلانِ القول بتفضيل مذهب الخلف في العلم والحكمة على مذهب السلف

سبق القول في بيان طريقة السلف وذكر الدليل على وجوب الأخذ بها[٥٣]. أما هنا فإننا نريد أن نبرهن على أن مذهب السلف هو المذهب الصحيح، وذلك من وجهين:

أحدهما: أن مذهب السلف دل عليه الكتاب والسنة. فإن من تتبع طريقتهم بعلمٍ وعدلٍ وجدها مطابقة لما في الكتاب والسنة جملةً وتفصيلاً، ولا بد. فإن الله تعالى أنزل الكتاب ليتدبر الناسُ آياتِه، ويعملوا بها إن كانت أحكاماً، ويصدقوا بها إن كانت أخباراً،

---

[٥٣] قال الإمام سفيان الثوري رحمه الله في رسالته إلى عباد بن عوام رحمه الله: وبلغني أن أصحاب محمد ﷺ كانوا يتعوذون أن يدركوا هذا الزمان وكان لهم من العلم ما ليس لنا فكيف بنا حين أدركنا على قلة علم وبصر وقلة صبر وقلة أعوان على الخير مع كدر من الزمان وفساد من الناس وعليك بالأمر الأول والتمسك به. (أخرجه ابن أبي حاتم في "مقدمة الجرح والتعديل" / ص ٥١/ سنده صحيح إن شاء الله).

ولا ريبَ أن أقرب الناس إلى فهمها وتصديقها والعمل بها هم السلف، لأنها جاءت بلغتهم وفي عصرهم، فلا جرم أن يكونوا أعلمَ الناس بها فقهاً وأقومَهم عملاً.

الثاني: أن يقال: إن الحق في هذا الباب إما أن يكون فيما قاله السلف، أو فيما قاله الخلف. والثاني باطل، لأنه يلزم عليه أن يكون الله ورسوله والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار قد تكلموا بالباطل تصريحاً أو ظاهراً، ولم يتكلموا مرةً واحدةً بالحق الذي يجب اعتقاده لا تصريحاً ولا ظاهراً، فيكون وجود الكتاب والسنة ضرراً محضاً في أصل الدين، وتركُ الناس بلا كتاب ولا سنة خيراً لهم وأقومَ، وهذا ظاهر البطلان.

هذا، وقد قال بعض الأغبياء: (طريقة السلف أسلم، وطريقة الخلف أعلم وأحكم) [٥٤].

---

[٥٤] قال الإمام ابن القيم -رحمه الله-: حتى إن كثيراً من المنتسبين إلى السنة يعتقدون أن طريقة السلف هي الإيمان بألفاظ النصوص والإعراض عن تدبر معانيها وتفقهها وتعقلها. فلما أفهموا َالنفاة والمعطلة أن هذه طريقة السلف، قال من قال منهم: (طريقة السلف أسلم وطريقة الخلف أعلم وأحكم)، لأنه اعتقد أن طريقة الخلف متضمنة لطلب معاني نصوص الإثبات، ولنفي حقائقها

ومنشأ هذا القول أمران: أحدهما: اعتقاد قائله - بسببِ ما عنده من الشبهات الفاسدة - أن الله تعالى ليس له في نفس الأمر صفة حقيقية دلت عليها هذه النصوص.

الثاني: اعتقاده أن طريقة السلف هي الإيمان بمجرد ألفاظ نصوص الصفات من غير إثباتِ معنىً لها. فيبقى الأمر دائراً بين أن نؤمنَ بألفاظٍ جوفاءَ لا معنى لها، وهذه طريقة

وظواهرها الذي هو باطل عنده، فكانت متضمنة للعلم والتنزيه، وكان فيها علم بمعقول، وتأويل لمنقول، ومذهب السلف عنده عدم النظر في النصوص وفهم المراد منها دون النظر إلى التعارض والاحتمالات. وهذا عنده أسلم لأنه إذا كان اللفظ يحتمل عدة معاني فحمله على بعضها دون بعض مخاطرة، وفي الإعراض عن ذلك سلامة من هذه المخاطرة.

فلو تبين لهذا البائس وأمثاله أن طريقة السلف إنما هي إثبات ما دلت عليه النصوص من الصفات وفهمها وتدبرها وتعقل معانيها وتنزيه الرب عن تشبيهه فيها بخلقه كما ينزهونه عن العيوب والنقائص وإبطال طريقة النفاة المعطلة وبيان مخالفتها لصريح المعقول كما هي مخالفة لصحيح المنقول: **علم أن طريقة السلف أعلم وأحكم وأسلم وأهدى إلى الطريق الأقوم**، وأنها تتضمن تصديق الرسول فيما أخبر وفهم ذلك ومعرفته. ولا يناقض ذلك إلا ما هو باطل وكذب وخيال. ومن جعل طريقة السلف عدم العلم بمعاني الكتاب والسنة وعدم إثبات ما تضمناه من الصفات فقد أخطأ خطأ فاحشاً على السلف. (انتهى من "الصواعق المرسلة" / ٣/ ص١١٣٣-١١٣٤).

السلف على زعمه، وبين أن نثبت للنصوص معانيَ تخالف ظاهرَها الدالَّ على إثبات الصفات لله، وهذه هي طريقة الخلف. ولا ريبَ أن إثباتَ معاني النصوص أبلغُ في العلم والحكمة من إثبات ألفاظٍ جوفاءَ ليس لها معنىً، ومن ثمَ فضّل هذا الغبيُّ طريقة الخلف في العلم والحكمة على طريقة السلف.

وقولُ هذا الغبيِّ يتضمن حقاً وباطلاً. فأما الحق فقوله إن مذهب السلف أسلم، وأما الباطل فقوله إن مذهبَ الخلف أعلمُ وأحكمُ. وبيان بطلانه من وجوه:

الوجه الأول: أنه يناقض قولَه إن طريقة السلف أسلم. فإنّ كَوْنَ طريقةِ السلف أسلمَ من لوازم كونها أعلمَ وأحكمَ، إذ لا سلامة إلا بالعلم والحكمة، العلمِ بأسباب السلامة، والحكمةِ في سلوك تلك الأسباب[٥٥].

وبهذا يتبين أن طريقة السلف أسلم وأعلم وأحكم. وهو لازم لهذا الغبي لزوماً لا محيدَ عنه.

---

[٥٥] قال الإمام ابن الوزير –رحمه الله–: فالفريقان المشبهة والمعطلة إِنَّمَا أَتَوا من تعَاطِي علم مَا لَا يعلمُونَ وَلَو أَنهم سلكوا مسالك السّلف فِي الايمان بِمَا ورد من غير تَشْبِيه لسلموا، فقد أَجمعُوا على أَن طَرِيقَة السّلف أسلم، وَلَكنهُمْ ادعوا أَن طَرِيقَة الْخلف أعلم فطلبوا الْعلم من غير مظانه بل طلبُوا علم مَا لَا يعلم فتعارضت أنظارهم الْعَقْلِيَّة وعارض بعضهم بَعْضًا فِي الْأَدِلَّة السمعية –ثم ذكر بطلان المشبهة والمعطلة، ثم قال:– وَالْكل حرمُوا طَرِيق الْجمع بَين الْآيَات والْآثَار والاقتداء بالسلف الاخيار والاقتصار على جليات الابصار وصحاح الْآثَار. ("إيثار الحق على الخلق" / ص ٩٣).

الوجه الثاني: أن اعتقادَه أن الله ليس له صفةٌ حقيقية دلت عليها هذه النصوصُ اعتقادٌ باطل، لأنه مبني على شبهات فاسدة، ولأن الله تعالى قد ثبتت له صفات الكمال عقلاً وفطرة وشرعاً.

فأما دلالة العقل على ثبوت صفات الكمال لله، فوجهه أن يقال إن كل موجود في الخارج فلابد أن يكون له صفةٌ، إما صفة كمال وإما صفة نقص، والثاني باطل بالنسبة إلى الرب الكامل المستحقِّ للعبادة، وبذلك استدل الله تعالى على بطلان ألوهية الأصنام باتصافها بصفات النقص والعجز - بكونها لا تسمع ولا تبصر ولا تنفع ولا تضر ولا تخلق ولا تنصر -[٥٦].

---

[٥٦] قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَاأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٤٢]، وقال سبحانه: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ * أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [طه: ٨٨، ٨٩].

قال الإمام ابن خزيمة -رحمه الله-: وخبرنا في محكم تنزيله أنه يسمع ويرى ، فقال جل وعلا لكليمه موسى ولأخيه هارون صلوات الله عليهما: ﴿إنني معكما أسمع وأرى﴾، وما لا يسمع ولا يبصر : كالأصنام ، التي هي من الموتان ألم تسمع مخاطبة خليل الله صلوات الله عليه أباه : ﴿يا أبت لم

فإذا بطل الثاني تعين الأول، وهو ثبوت صفات الكمال لله[٥٧].

تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً﴾؟ أفلا يعقل - يا ذوي الحجا - من فهم عن الله تبارك وتعالى هذا : أن خليل الله صلوات الله عليه وسلامه لا يوبخ أباه على عبادة ما لا يسمع ولا يبصر، ثم يدعو إلى عبادة من لا يسمع ولا يبصر، ولو قال الخليل صلوات الله عليه لأبيه : أدعوك إلى ربي الذي لا يسمع ولا يبصر ، لأشبه أن يقول: فما الفرق بين معبودك ومعبودي ؟ والله قد أثبت لنفسه أنه يسمع ويرى، والمعطلة من الجهمية تنكر كل صفة لله جل وعلا وصف بها نفسه في محكم تنزيله ، أو على لسان نبيه ﷺ لجهلهم بالعلم.

(انتهى من "التوحيد" / لابن خزيمة / ١/ ص ٣٨).

[٥٧] قال الإمام الدارمي -رحمه الله-: ومما يزيدك بياناً قول إبراهيم الخليل خليل الله -صلوات الله عليه- حين قال لأبيه: ﴿**يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً**﴾ يعني إبراهيم: أن إلهه بخلاف الصنم، يسمع بسمع ويبصر ببصر. ولو كان على ما أولت أيها المريسي لقال أبو إبراهيم لإبراهيم: فإلهك أيضاً لا يسمع بسمع ولا يبصر ببصر. وكذلك قال في أصنام العرب: ﴿**أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها**﴾ يعني: أن الله بخلافهم له يد يبطش بها وعين يبصر بها وسمع يسمع به. ("نقض الدارمي" / ١/ ص ٣٠٦).

ثم إنه قد ثبت بالحس والمشاهدة أن للمخلوق صفاتِ كمال، والله سبحانه هو الذي أعطاه إياها، فمعطي الكمالِ أولى به[٥٨].

---

[٥٨] قال الإمام ابن تيمية -رحمه الله-: إن كل كمال فيه فإنما استفاده من ربه وخالقه. فإذا كان هو مبدِعاً للكمال وخالقاً له، كان من المعلوم بالاضطرار أن معطي الكمال وخالقه ومبدِعه أولى بأن يكون متصفاً به من المستفيد المبدَع المعطىَ. وقد قال الله تعالى: ﴿**ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء ومن رزقناه منا رزقاً حسناً فهو ينفق منه سرّاً وجهراً هل يستوون الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون * وضرب الله مثلاً رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كَلٌّ على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير هل يستوي هو من يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم**﴾. وهذا المثل وإن كان يفيد الدعاء إلى عبادة الله وحده دون عبادة ما سواه ونفيَ عبادة الأوثان لوجود هذا الفرقان، فإذا عُلم انتفاء التساوي بين الكامل والناقص، وعلم أن الرب أكمل من خلقه وجب أن يكون أكمل منهم وأحق منهم بكل كمال بطريق الأولى والأحرى. ("العقيدة الأصفهانية" / ص ١١٨).

وأما دلالة الفطرة على ثبوت صفات الكمال لله، فلأن النفوس السليمة مجبولةٌ ومفطورة على محبة الله وتعظيمه وعبادته. وهل تحب وتعظم وتعبد إلا من عرفت أنه متصف بصفات الكمال اللائقة بربوبيته وألوهيته؟[٥٩]

وأما دلالة الشرع على ثبوت صفات الكمال لله فأكثر من أن تحصر، مثلُ قوله تعالى: ﴿هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم * هو الله الذي لا إله

---

[٥٩] قال الإمام ابن تيمية -رحمه الله-: وقال تعالى: **﴿قل هل من شركآئكم من يهدي إلى الحق قل الله يهدي للحق أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدي إلا أن يهدى فما لكم كيف تحكمون﴾** [يونس : ٣٥] فبين سبحانه بما هو مستقِرٌّ في الفطر أن الذي يهدي إلى الحق أحق بالاتباع ممن لا يهتدي إلا أن يهديه غيره، فلزم أن يكون الهادي بنفسه هو الكامل، دون الذي لا يهتدي إلا بغيره.

وإذا كان لابد من وجود الهادي لغير المهتدي بنفسه فهو الأكمل، وقال تعالى في الآية الأخرى: **﴿أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضرّاً ولا نفعاً﴾** [طه : ٨٩] فدل على أن الذي يرجع إليه القول، ويملك الضرّ والنفع، أكمل منه.

وقال إبراهيم لأبيه: **﴿يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً﴾** [مريم : ٤٢]، فدل على أن السميع البصير الغني أكمل، وأن المعبود يجب أن يكون كذلك.

(انتهى "مجموع الفتاوى" / ٦/ ص ٨٢).

إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون * هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم﴾.

وقولِه: ﴿وله المثل الأعلى في السموات والأرض﴾، وقولِه تعالى: ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾ - إلى قوله - وهو العلي العظيم﴾.

ومثلُ قوله ﷺ: «أيها الناس اِربَعوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائباً، إنما تدعون سميعاً بصيراً قريباً، إن الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته»، إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث[٦٠].

---

[٦٠] قال الإمام ابن القيم -رحمه الله-: مع كمال علم المتكلم وفصاحته وبيانه ونصحه يمتنع عليه أن يريد بكلامه خلاف ظاهره وحقيقته، وعدم البيان في أهمّ الأمور وما تشتد الحاجة إلى بيانه. نكتفي من هذا الفصل بذكر مناظرة جرت بين جهمي معطل وسني مثبت، حدثني بمضمونها شيخُنا عبدالله بن تيمية رحمه الله أنه جمعه وبعض الجهمية مجلس فقال الشيخ: قد تطابقت نصوص الكتاب والسنة والآثار على إثبات الصفات لله وتنوعت دلالتها عليها أنواعاً توجب العلم الضروري بثبوتها، وإرادة المتكلم

اعتقاد ما دلت عليه، والقرآن مملوء من ذكر الصفات. والسنة ناطقة بمثل ما نطق به القرآن مقررة له مصدقة له مشتملة على زيادة في الإثبات، فتارة بذكر الاسم المشتمل على الصفة كالسميع البصير العليم القدير العزيز الحكيم، وتارة بذكر المصدر وهو الوصف الذي اشتقت منه تلك الصفة –ثم ذكر عدداً من الأمثلة، ثم قال:- وتارة يكون بذكر حكم تلك الصفة كقوله: ﴿**قد سمع الله**﴾ [المجادلة: ١] ، و ﴿**إنني معكما أسمع وأرى**﴾ [طه: ٤٦]، وقوله: ﴿**فقدرنا فنعم القادرون**﴾ [المرسلات: ٢٣]، وقوله: ﴿**علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم**﴾ [البقرة: ١٨٧]. ونظائر ذلك.

ويصرح في الفوقية بلفظها الخاص، وبلفظ العلو والاستواء، وأنه في السماء، وأنه ذو المعارج، وأنه رفيع الدرجات، وأنه تعرج إليه الملائكة، وتنزّل من عنده، وأنه ينزل إلى سماء الدنيا، وأن المؤمنين يرونه بأبصارهم عياناً من فوقهم، إلى أضعاف أضعاف ذلك مما لو جمعت النصوص والآثار فيه لم تنقص عن نصوص الأحكام وآثارها.

ومن أبْين المحال وأوضح الضلال حمل ذلك كله على خلاف حقيقته وظاهره، ودعوى المجاز فيه والاستعارة، ... إلخ.

(انتهى من "الصواعق المرسلة"/ ١/ ص٣٢٠-٣٢٦).

الوجه الثالث: أن اعتقاده أن طريقة السلف مجردُ الإيمان بألفاظ النصوص بغير إثبات معناها اعتقاد باطل كذبٌ على السلف. فإن السلفَ أعلمُ الأمة بنصوص الصفات لفظاً ومعنىً، وأبلغُهم في إثبات معانيها اللائقة بالله تعالى على حسب مراد الله ورسوله.

الوجه الرابع: أن السلف هم ورثة الأنبياء والمرسلين، فقد تلقوا علومهم من يُنبوع الرسالة الإلهية وحقائق الإيمان. أما أولئك الخلفُ فقد تلقَوا ما عندهم من المجوس والمشركين وضلال اليهود واليونان. فكيف يكون ورثةُ المجوس والمشركين واليهود واليونان وأفراخهمُ أعلمَ وأحكمَ في أسماء الله وصفاته من ورثة الأنبياء والمرسلين؟!

الوجه الخامس: أن هؤلاء الخلفَ الذين فضّل هذا الغبي طريقتهم في العلم والحكمة على طريقة السلف كانوا حيارى مضطربين بسبب إعراضهم عما بعث الله به محمداً ﷺ من البينات والهدى، والتماسِهم علمَ معرفة الله تعالى ممن لا يعرفه بإقراره على نفسه وشهادة الأمة عليه. حتى قال الرازي - وهو من رؤسائهم - مبيِّناً ما ينتهي إليه أمرهم: (نهاية إقدام العقول عقال، وأكثر سعي العالمين ضلال، وأرواحنا في وَحشة من جسومنا،

وغايةُ دنيانا أذىً ووبالُ، ولم نستفد من بحثنا طولَ عمرنا، سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا.

لقد تأملت الطرقَ الكلامية والمناهجَ الفلسفيةَ فما رأيتها تشفي عليلاً ولا تروي غليلاً[٦١]**،**

---

(٦١) قال الإمام محمد بن الوزير -رحمه الله- في سبب تضلعه في علم الكلام، ثم ذكر سبب تركه: وسبب إيثاري لذلك، وسلوكي تلك المسالك: أن أول ما قرع سمعي، ورسخ في طبعي: وجوب النظر والقول بأن من قلد في الاعتقاد، فقد كفر، فاستغرقت في ذلك حدة نظري، وباكورة عمري، وما زلت أرى كل فرقة من المتكلمين تداوي أقوالا مريضة، وتقوي أجنحة مهيضة، فلم أحصل على طائل، وتمثلت فيهم بقول القائل:

كل يداوي سقيما من مقالته * فمن لنا بصحيح ما به سقم

فرجعت إلى كتاب الله، وسنة رسول الله ﷺ. وقلت: لا بد أن يكون فيها براهين، وردود على مخالفي الإسلام، وتعليم وإرشاد لمن اتبع الرسول -عليه أفضل الصلاة والسلام-. فتدبرت ذلك، فوجدت الشفاء كله: دقه وجله، وانشرح صدري، وصلح أمري .

("العواصم والقواصم" / للإمام ابن الوزير/ ١/ ص٢٠٢).

ورأيت أقربَ الطرق طريقةَ القرآن، أقرأ في الإثبات: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾، ﴿إليه يصعد الكلم الطيب﴾، وأقرأ في النفي: ﴿ليس كمثله شيءٌ﴾، ﴿ولا يحيطون به علماً﴾. ومن جرّب مثلَ تجرِبتي عرف مثل معرفتي) انتهى كلامه[٦٢].

فكيف تكون طريقةُ هؤلاء الحيارى الذين أقروا على أنفسهم بالضلال والحَيْرة أعلمَ وأحكمَ من طريقة السلفِ، الذين هم أعلام الهدى ومصابيح الدجى، الذين وهبهم الله من العلم والحكمة ما برزوا به على سائر أتباع الأنبياء، والذين أدركوا من حقائق الإيمان

---

[٦٢] قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- في "منهاج السنة"، بعد نقل كلام الرازي: وهو صادق فيما أخبر به أنه لم يستفد من بحوثه في الطرق الكلامية والفلسفية سوى أن جمع قيل وقالوا، وأنه لم يجد فيها ما يشفي عليلا ولا يروى غليلاً، فإن من تدبر كتبه كلها لم يجد فيها مسألة واحدة من مسائل أصول الدين موافقة للحق الذي يدل عليه المنقول والمعقول بل يذكر في المسألة عدة أقوال، والقول الحق لا يعرفه، فلا يذكره. وهكذا غيره من أهل الكلام والفلسفة، ليس هذا من خصائصه، فإن الحق واحد ولا يخرج عما جاءت به الرسل وهو الموافق لصريح العقل فطرة الله التي فطر الناس عليها. وهؤلاء لا يعرفون ذلك، بل هم من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا وهم مختلفون في الكتاب **﴿وإن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد﴾** [البقرة: ١٧٦]. ("منهاج السنة النبوية" / ٥/ ص١٤٣).

والعلوم ما لو جُمِعَ إليه ما حصَل لغيرهم لاستحيا من يطلب المقارنة، فكيف بالحكم بتفضيل غيرهم عليهم؟![٦٣] **وبهذا يتبين أن طريقة السلف أسلمُ وأعلم وأحكم.**

---

(٦٣) إن المتكلمين أهل الحيرة فلا يوازي علمهم علم السلف فضلاً عن أن يفوق علم السلف.

قال القرطبي -رحمه الله -: وقد رجع كثير من أئمة المتكلّمين عن الكلام بعد انقضاء أعمار مديدة وأمداد بعيدة، فمنهم: إمام المتكلّمين أبو المعالي، فقد حكى عنه الثّقات أنّه قال: لقد خلّيت أهل الإسلام وعلومهم، وركبت البحر الأعظم، وغصت في الذي نهوا عنه، كلّ ذلك رغبة في طلب الحقّ وهرباً من التّقليد. والآن قد رجعت عن الكلّ إلى كلمة الحق. عليكم بدين العجائز. وأختم عاقبة أمري عند الرّحيل بكلمة الإخلاص، والويل لابن الجويني!.

وكان يقول لأصحابه: يا أصحابنا لا تشتغلوا بالكلام، فلو عرفت أنّ الكلام يبلغ بي ما بلغ ما تشاغلت به.

وقال أحمد بن سنان: كان الوليد بن أبان الكرابيسي خالي. فلما حضرته الوفاة قال لبنيه: أتعلمون أحداً أعلم منّي؟ قالوا: لا. قال: افتتهمونني؟ قالوا: لا. قال: فإنّي أوصيكم، أتقبلون؟ قالوا: نعم. قال: عليكم بما عليه أهل الحديث؛ فإنّي رأيت الحق معهم.

وقال أبو الوفاء بن عقيل: لقد بالغت في الأصول طول عمري، ثمّ عدت القهقرى إلى مذهب المكتب.

(انتهى من "المفهم"/ للقرطبي/ ٢٢/ ص٥١).

الباب الخامس: في حكاية بعض المتأخرين لمذهب السلف

قال بعض المتأخرين: (إن مذهب السلف في الصفات إمرار النصوص على ما جاءت به، مع اعتقاد أن ظاهرَها غيرُ مراد) انتهى.

وهذا القول على إطلاقه فيه نظر(٦٤)، فإن لفظ (ظاهر) مجمل يحتاج إلى تفصيل: فإن أُريد بالظاهر ما يظهر من النصوص من الصفات التي تليق بالله من غير تشبيه، فهذا مراد قطعاً. ومن قال: (إنه غيرُ مراد) فهو ضالّ إن اعتقده في نفسه، وكاذب أو مخطئ إن نسبه إلى السلف(٦٥).

---

(٦٤) يعني: أن هذا الإطلاق ضعيف وليس بصحيح.

قال العلامة جمال الدين القاسمي -رحمه الله-: فيه نظر: يستعمل الجمهور هذه العبارة في تضعيف الرواة والأحاديث والأحكام ونحو ذلك. ("لسان المحدثين" / ٥/ ص ١٤١).

(٦٥) قد عُلم أن الله تعالى يريد هداية العباد لا إضلالهم، فمستحيل أن يخبرهم بصفة من صفاته –عز وجل– وهو لا يريد ظاهر الخبر، بل يريد خلاف ذلك بلا إسداء قرينة تدل على مراده. ومن تتبع آثار

وإن أريد بالظاهر ما قد يظهر لبعض الناس من أن ظاهرها تشبيهُ الله بخلقه، فهذا غير مراد قطعاً. وليس هو ظاهرَ النصوص، لأن مشابهة الله لخلقه أمر مستحيل، ولا يمكن أن يكون ظاهر الكتاب والسنة أمراً مستحيلاً[٦٦]. ومن ظن أن هذا هو ظاهرُها فإنه يُبَيّن له أنّ ظنه خطأ، وأن ظاهرَها بل صريحَها إثباتُ صفات تليق بالله وتختص به.

وبهذا التفصيل نكون قد أعطينا النصوص حقها لفظاً ومعنى، والله أعلم.

السلف الصالح وتدبرها علم -بإذن الله- أن السلف الصالح الذين هم من أعلم الناس بالعربية يعلمون أن ظاهر الخبر هو مراد المتكلم إذا لم توجد قرينة صارفة. فمن قال عن السلف غير ذلك فقد كذب عليهم أو أخطأ.

[٦٦] يعني: أن إذا أخبرنا الله تعالى خبراً عن نفسه -وهو أصدق القائلين-، فهو على ما أخبرَنا به على وجه الكمال، وليس ظاهره تمثيلاً أو تشبيهاً لأنه قد أخبرنا بعدم مماثل له ولا شبيه ولا كفء ولا مسامٍ.

قال بعض المتأخرين: (إنه لا فرق بين مذهب السلف ومذهب المؤولين في نصوص الصفات، فإن الكل اتفقوا على أن الآياتِ والأحاديثَ لا تدل على صفات الله، لكنِ المتأولون رأَوُا المصلحة في تأويلها لمسيس الحاجة إليه وعينوا المرادَ، وأما السلف فأمسكوا عن التعيين لجواز أن يكون المرادَ غيرُه). انتهى.

هذا كذب صريح على السلف، فما منهم أحد نفى دِلالة النصوص على صفات الله التي تليق به، بل كلامهم يدل على تقرير جنس الصفات في الجملة، والإنكارِ على من نفاها أو شبَّه الله بخلقه، كقول نُعيمِ بنِ حماد الخزاعي شيخِ البخاري: (من شبه الله بخلقه فقد كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر، وليس ما وصف الله به نفسه ولا رسولُه تشبيهاً) انتهى، وكلامهم هذا كثير[٦٧].

---

[٦٧] بل السلف الصالح أنكروا التشبيه كما أنهم أنكروا التكييف، وأتوا ببينة على أن الخلف المبتدعة هم الذين شبّهوا وكيّفوا.

قال الإمام الدارمي -رحمه الله-: فهاك أيها المريسي خذها مشهورة مأثورة فصرها وضعها بجنب تأويلك الذي خالفت فيه أمة محمد، ثم أنشأت أيها المريسي واعظاً لمن اتعظ قبلك بمواعظ الله وقبلها عن الله وصدق فيها رسول الله، وانتهى فيها إلى ما أمر الله فانزجر عما نهى الله فقلتَ لهم: (لا تعتقدوا في أنفسكم أن لله شبها أو مثلا أو عدلا أو يدرك بحاسة وانفوا عن الله ما نفاه عن نفسه وصفوه بما وصف به نفسه في كتابه، فإن من زعم أن لله شبهاً وعِدلاً فهو كافر).

فيقال لك أيها المريسي المدعي في الظاهر لما أنت له منتف في الباطن: قد قرأنا القرآن كما قرأت وعقلنا عن الله أنه ليس كمثله شيء وقد نفينا عن الله ما نفى عن نفسه ووصفناه بما وصف به نفسه فلم نعده وأبيت أن تصفه بما وصف به نفسه ووصفته بخلاف ما وصف به نفسه.

أخبرنا الله في كتابه أنه ذو سمع وبصر ويدين ووجه ونفس وعلم وكلام وأنه فوق عرشه فوق سمواته فآمنا بجميع ما وصف به نفسه كما وصفه بلا كيف ونفيتها أنت عنه كلهات أجمع بعمايات من الحجج وتكييف فادعيت أن وجهه كله وأنه لا يوصف بنفس وأن سمعه إدراك الصوت إياه وأن بصره مشاهدة الألوان كالجبال والحجارة والأصنام التي تنظر إليك بعيون لا تبصر وأن يديه رزقاه موسعه ومقتوره وأن علمه وكلامه مخلوقان محدثان، وأن أسماءه مستعارة مخلوقة محدثة وأن فوق عرشه منه مثل ما هو في أسفل سافلين وأنه في صفاته كقول الناس في كذا وكقول العرب في كذا تضرب له الأمثال تشبيهاً بغير شكلها وتمثيلا بغير مثلها فأي تكييف أوحش من هذا إذ نفيت هذه الصفات وغيرها عن الله تعالى بهذه الأمثال والضلالات المضلات.

(انتهى من "نقض الدارمي" / ١/ ص ٤٢٧-٤٢٩).

ومما يدل على إثبات السلف للصفات وأنهم ليسوا على وفاق مع أولئك المتأولين، أن أولئك المُتَأَوِّلَةَ كانوا خصوماً للسلف، وكانوا يرمونهم بالتشبيه والتجسيم لإثباتهم الصفاتِ، ولو كان السلف يوافقونهم في عدم دِلالة النصوص على صفات الله لم يجعلوهم خصوماً لهم ويرموهم بالتشبيه والتجسيم، وهذا ظاهر ولله الحمد[٦٨].

---

[٦٨] وأقوال السلف الصالح معروفة أن الله تعالى يمكنه إدراك بعض صفاتها بالحواس أو ببعض الحواس، إما في الدنيا وإما في الآخرة، بخلاف خصمائهم الذين أنكروا ذلك، والصواب مع السلف نقلاً وعقلاً.

قال الإمام الدارمي –رحمه الله– في رده على المريسي: وادعيت في تأويلك أن معبودك أصم لا يسمع، أبكم لا يتكلم، أعمى لا يبصر، أجذم لا يد له مقعد لا يقوم ولا يتحرك، جاهل لا يعلم مضمحل، ذاهب لا يوصف بحد ولا بنفس ولا يدرك بحاسة في دعواك. وهذا خلاف صفة رب العالمين، فالحمد لله الذي مَنَّ علينا بمعرفته، وطبع على قلبك بجهالته. ولو قرأت القرآن وعقلت عن الله معناه لعلمت يقيناً أنه يدرك بحاسة بينة في الدنيا والآخرة، فقد أدرك منه موسى في الدنيا الصوت والكلام وهو من أعظم الحواس، قال الله تعالى: ﴿**وكلم الله موسى تكليماً**﴾.

وتدرِك منه في المعاد الرؤية والكلام والنظر عياناً كما قال رسول الله على رغمك وإن كرهت. قال الله تعالى: ﴿**وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة**﴾. أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله

ولا ينظر إليهم. فهل من حواس أعظم من الكلام والنظر؟ غير أنكم جعلتم الحواس كلمة أغلوطة تغالطون بها الصبيان والعميان، لأن قولكم: (لا تدركه الحواس) معناه عندكم: أنه لا شيء، **لما قد علمتم وجميع العالمين أن الشيء الذي يقع عليه اسم الشيء لا يخلو من أن يدرك بكل الحواس أو ببعضها**، وأن لا شيء لا يدرك بشيء من الحواس في الدنيا ولا في الآخرة، فجعلتموه لا شيء، وقد كذبكم الله تعالى بذلك في كتابه فقال: ﴿**كل شيء هالك إلا وجهه**﴾، وقال تعالى: ﴿**قل أي شيء أكبر شهادة قل الله**﴾، فجعل نفسه أعظم الأشياء وأكبر الأشياء وخالق الأشياء.

فإن أنكرت ما قلنا ولم تعقله بقلبك فسمِّ شيئاً من الأشياء شيئاً صغيراً أو كبيراً يقع عليه اسم الشيء لا يدرك بشيء من الحواس الخمس غير ما ادعيتم على الأكبر الأكبر والأعظم الأعظم والأوجد الأوجد الذي لم يزل ولا يزال، فجعلتم الخلق الفاني موجوداً والقيم الدائم الباقي غير موجود ولا يدرك بحاسة في الدنيا والآخرة.

وادعيتم على غيركم ممن لا يكيف التكييف وعلى من لا يشبه التشبيهَ وأنتم دائبون تكيّفون وتشبهون بأقبح الأشياء وأبطل الأمثال، فمرة تكيّفه فتشبِّهه بأعمى، ومرة بأقطع، فكان وعظك هذا لهؤلاء كقول القائل: (كلمة حق يبتغى بها باطل).

(انتهى من "نقض الدارمي" / ١/ ص ٤٢٩-٤٣١).

الباب السابع: في أقوال السلف المأثورة في الصفات

اشتهر عن السلف كلمات عامة وأخرى خاصة في آيات الصفات وأحاديثها. فمن الكلمات العامة قولهم: (أمروها كما جاءت بلا كيف). روي هذا عن مكحولٍ والزهريّ ومالكِ بنِ أنسٍ وسفيانَ الثوريّ والليثِ بنِ سعدٍ والأوزاعيّ.

وفي هذه العبارةِ ردٌّ على المعطلة والمشبهة. ففي قولهم: (أمروها كما جاءت) رد على المعطلة. وفي قولهم: (بلا كيف) رد على المشبهة.

وفيها أيضاً دليل على أن السلف كانوا يثبتون لنصوص الصفات المعانيَ الصحيحةَ التي تليق بالله. تدل على ذلك من وجهين:

الأول قولهم: (أمروها كما جاءت)، فإن معناها إبقاء دلالتها على ما جاءت به من المعاني، ولا ريب أنها جاءت لإثبات المعاني اللائقة بالله تعالى. ولو كانوا لا يعتقدون لها معنىً لقالوا: (أمروا لفظها ولا تتعرضوا لمعناها) ونحوِ ذلك.

الثاني قولهم: (بلا كيف)، فإنه ظاهر في إثبات حقيقة المعنى، لأنهم لو كانوا لا يعتقدون ثبوته ما احتاجوا إلى نفي كيفيته، فإن غير الثابت لا وجود له في نفسه، فنفي كيفيته من لغو القول.

فإن قيل: ما الجواب عما قاله الإمام أحمد في حديث النزول وشَبَهِهِ: (نؤمن بها ونصدق، لا كيف ولا معنى)؟

قلنا: الجواب على ذلك أن المعنى الذي نفاه الإمام أحمد في كلامه هو المعنى الذي ابتكره المعطلة من الجهمية وغيرهم وحرفوا به نصوص الكتاب والسنة عن ظاهرها إلى معانٍ تخالفه[٦٩].

ويدل على ما ذكرنا أنه نفى المعنى ونفى الكيفية، ليتضمن كلامه الردَّ على كلتا الطائفتين المبتدعتين طائفةِ المعطلة وطائفةِ المشبهة.

ويدل عليه أيضاً ما قاله المؤلف في قول محمد بن الحسن: (اتفق الفقهاء كلُّهم من المشرق إلى المغرب على الإيمان بالقرآن والأحاديث التي جاء بها الثقات عن رسول الله ﷺ في صفة الرب - عز وجل - من غير تفسير ولا وصف ولا تشبيه) انتهى.

قال المؤلف: أراد به تفسيرَ الجهمية المعطلة الذين ابتدعوا تفسير الصفات بخلاف ما كان عليه الصحابةُ والتابعون من الإثبات، انتهى.

---

[٦٩] قال شيخ الإسلام -رحمه الله-: ظنوا أن مراده أنا لا نعرف معناها. وكلام أحمد صريح بخلاف هذا في غير موضع، وقد بيّن أنه إنما ينكر تأويلات الجهمية ونحوهم الذين يتأولون القرآن على غير تأويله، وصنف كتابه في "الرد على الزنادقة والجهمية" فيما أنكرته من متشابه القرآن وتأولته على غير تأويله، فأنكر عليهم تأويل القرآن على غير مراد الله ورسوله، وهم إذا تأولوه يقولون : (معنى هذه الآية كذا)، والمكيفون يثبتون كيفية، يقولون: (إنهم علموا كيفية ما أخبر به من صفات الرب)، فنفى أحمد قول هؤلاء، وقول هؤلاء، قول المكيفة الذين يدعون أنهم علموا الكيفية وقول المحرفة الذين يحرفون الكلم عن مواضعه، ويقولون: معناه كذا وكذا. (انتهى من "مجموع الفتاوى" / ١٧/ ص٣٦٣-٣٦٤).

فهذا دليل على أن تفسير آيات الصفات وأحاديثها على نوعين: الأول تفسير مقبول، وهو ما كان عليه الصحابة والتابعون من إثبات المعنى اللائق بالله - عز وجل - الموافقِ لظاهر الكتاب والسنة. الثاني تفسير غير مقبول، وهو ما كان بخلاف ذلك. وهكذا المعنى، منه مقبول ومنه مردود، على ما تقدم.

فإن قيل: هل لصفات الله كيفية؟ فالجواب: نعم لها كيفية، لكنها مجهولة لنا. لأن الشيء إنما تعلم كيفيته بمشاهدته أو مشاهدة نظيره أو خبر الصادق عنه، وكل هذه الطرقِ غير موجودة في صفات الله. وبهذا عرف أن قول السلف: (بلا كيف) معناه بلا تكييف، لم يريدوا نفي الكيفية مطلقاً، لأن هذا تعطيل محض، والله أعلم.

الباب الثامن: في علو الله تعالى وأدلة العلوّ

علو الله تعالى من صفاته الذاتية، وينقسم إلى قسمين علوِّ ذات وعلو صفات.

فأما علو الصفات فمعناه أنه ما من صفة كمال إلا ولله تعالى أعلاها وأكملُها، سواء كانت من صفات المجد والقهر أم من صفات الجمال والقدْر.

وأما علو الذات فمعناه أن الله بذاته فوق جميع خلقه، وقد دل على ذلك الكتاب والسنة والإجماع والعقل والفطرة. فأما الكتاب والسنة فإنهما مملوءان بما هو صريح أو ظاهر في إثبات علو الله تعالى بذاته فوق خلقه. وقد تنوعت دلالتهما على ذلك، فتارة بذكر العلو والفوقية والاستواء على العرش وكونه في السماء، مثلُ قوله تعالى: ﴿وهو العلي العظيم﴾،

﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾، ﴿يخافون ربهم من فوقهم﴾، ﴿الرحمن على العرش استوى﴾، ﴿ءأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض﴾[٧٠].

وقولِه ﷺ : «والعرش فوق ذلك، والله فوق العرش»[٧١]،

---

[٧٠] قال الإمام البيهقي رحمه الله: كما قال تعالى : **﴿أأمنتم من في السماء﴾** يعني: من فوق السماء. وقال: **﴿ولأصلبنكم في جذوع النخل﴾** يعني: على جذوعها. ("الأسماء والصفات"/ للبيهقي / ٢/ ص٣٤١).

[٧١] **هو حديث ابن مسعود -رضي الله عنه- بسند حسن**، لأنه من طريق حماد بن سلمة: عن عاصم بن أبي النجود: عن زرّ بن حبيش عن ابن مسعود مرفوعاً، كما أخرجه الإمام عثمان الدارمي في "النقض على بشر المريسي" (١/ ٤٧١)، والطبراني في "الكبير" (٨٩٨٧)، والبيهقي في "الأسماء والصفات" (٨٢٠).

وروي منقطعاً بين حماد وزرّ، ويكفينا السند الأول.

«ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء»[٧٢]. وتارة بصعود الأشياء وعروجها ورفعها إليه، مثلُ قوله تعالى: ﴿إليه يصعد الكلم الطيب﴾، ﴿تعرج الملائكة والروح إليه﴾[٧٣]، ﴿بل رفعه الله إليه﴾،

---

[٧٢] أخرجه البخاري (٤٣٥١) ومسلم (١٠٦٤) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه. وإذا أطلق لفظ (**السماء**) كان المراد به: العلو كما قاله العلماء.

[٧٣] فالملائكة يصعدون إلى الله، فهذا يدل على أن الله في العلو، خلافاً للجهمية القائلين بأن الله في كل مكان. لو كان في كل مكان لكان معهم فلماذا يحتاجون إلى الصعود إليه وهو معهم؟

قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: وكيف تعرج الملائكة والروح يوم القيامة ؟ وتعرج بمعنى : تصعد، يقال : عرج إلى السماء : إذا صعد، والله ذو المعارج، والمعارج: الدرج . فما هذه الدرج؟ فإلى من تؤدي الملائكة الأعمال إذا كان بالمحل الأعلى مثله بالمحل الأدنى؟ ("مجموع الفتاوى"/ ٥/ ص٤٠٤ / دار الوفاء).

وقولِه ﷺ : «لا يصعد إلى الله إلا الطيب»[٧٤]، «فيعرج الذين باتوا فيكم إلى ربهم»[٧٥]، «يُرفع إليه عملُ الليل قبل عمل النهار، وعملُ النهار قبل عمل الليل»[٧٦].

وتارة بنزول الأشياء منه ونحوِ ذلك، مثلُ قوله تعالى: ﴿تنزيل من رب العالمين﴾، ﴿قل نزله روح القدس من ربك﴾، وقولِه ﷺ: «ينزل ربنا إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر»[٧٧]. إلى غير ذلك من الآيات، والأحاديث التي تواترت عن النبي ﷺ في علو الله تعالى على خلقه تواتراً يوجب علماً ضرورياً بأن النبي ﷺ قالها عن ربه وتلقتها أمته عنه.

وأما الإجماع، فقد أجمع الصحابة والتابعون لهم بإحسان وأئمةُ أهل السنة على أن الله تعالى فوق سمواته على عرشه. وكلامهم مملوء بذلك نصّاً وظاهراً.

---

[٧٤] أخرجه البخاري (٧٤٣٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

[٧٥] أخرجه البخاري (٣٢٢٣) ومسلم (٦٢٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

[٧٦] أخرجه مسلم (١٧٩).

[٧٧] عن أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما: عن رسول الله ﷺ. (أخرجه البخاري (١١٤٥) ومسلم (٧٥٨)).

قال الأوزاعي: (كنا – والتابعون متوافرون – نقول: إن الله تعالى ذكرُه فوق عرشه، ونؤمن بما جاءت به السنة من الصفات) [٧٨]. قال الأوزاعي هذا بعد ظهور مذهب جهم النافي لصفات الله وعلوِّه، ليعرف الناس أن مذهب السلف كان يخالف مذهب جهم.

ولم يقل أحد من السلف قطُّ إن الله ليس في السماء، ولا أنه بذاته في كل مكان، ولا أن جميع الأمكنة بالنسبة إليه سواء، ولا أنه لا داخل العالم ولا خارجه ولا متصل ولا منفصل، ولا أنه لا تجوز الإشارة الحسية إليه. بل قد أشار إليه أعلم الخلق به في حجة الوداع يومَ عرفةَ في ذلك المجمع العظيم، حينما رفع إصبعه إلى السماء يقول: «اللهم اشهد»[٧٩] يُشهِد ربه على إقرار أمته بإبلاغه الرسالة، صلوات الله وسلامه عليه.

وأما العقل، فإن كل عقل صريح يدل على وجوب علو الله بذاته فوق خلقه من وجهين:

---

[٧٨] أخرجه البيهقي في "الأسماء والصفات" (٨٣٤) وهو أثر صحيح.

[٧٩] من حديث جابر رضي الله عنه أخرجه مسلم (١٢١٨).

وهذا الحديث جاء عن عدد من الصحابة رضي الله عنهم.

الأول: أن العلو صفة كمال، والله تعالى قد وجب له الكمال المطلق من جميع الوجوه، فلزم ثبوت العلو له تبارك وتعالى.

الثاني: أن العلو ضدُّه السُّفْلُ، والسُّفْل صفة نقص، والله تعالى مُنَزه عن جميع صفات النقص، فلزم تنزيهُه عن السُّفْل وثبوتُ ضده له وهو العلو.

وأما الفطرة، فإن الله تعالى فطر الخلق كلَّهم العرب والعجم حتى البهائمَ على الإيمان به وبعلوه. فما من عبد يتوجه إلى ربه بدعاء أو عبادة إلا وجد من نفسه ضرورةً بطلب العلو وارتفاع قلبه إلى السماء، لا يلتفت إلى غيره يميناً ولا شمالاً. ولا ينصرف عن مقتضى هذه الفطرة إلا من اجتالته الشياطينُ والأهواءُ[٨٠].

---

(٨٠) عن عياض بن حمار المجاشعي -رضي الله عنه-: أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبته: «ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا كل مال نحلته عبداً حلال. وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل

الكتاب وقال إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك وأنزلت عليك كتابا لا يغسله الماء تقرؤه نائما ويقظان».

(أخرجه مسلم (٢٨٦٥)).

قال الإمام ابن القيم -رحمه الله-: فكان أهل العقول كلهم في مقته إلا بقايا متمسكين بالوحي، فلم يستفيدوا بعقولهم حين فقدوا نور الوحي إلا عبادةَ الأوثان أو الصلبان أو النيران أو الكواكب والشمس والقمر أو الحيرة والشك أو السحر أو تعطيل الصانع والكفر به، فاستفادوا بها مقت الرب سبحانه لهم وإعراضه عنهم، فأطلع الله شمس الرسالة في تلك الظلم سراجاً منيراً وأنعم بها على أهل الأرض في عقولهم وقلوبهم ومعاشهم ومعادهم نعمة لا يستطيعون لها شكوراً، فأبصروا بنور الوحي ما لم يكونوا بعقولهم يبصرونه ورأوا في ضوء الرسالة لما لم يكونوا بآرائهم يرونه، فكانوا كما قال الله تعالى: ﴿**الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور**﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وقال: ﴿**الر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد**﴾ [إبراهيم: ١]، وقال: ﴿**وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا**﴾ [الشورى: ٥٢]، وقال: ﴿**أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها**﴾ [الأنعام: ١٢٢]، فمضى الرعيل الأول في ضوء ذلك النور لم تطفئه عواصف الأهواء ولم تلتبس به ظلم الآراء وأوصوا من بعدهم أن لا يفارقوا النور الذي اقتبسوه منهم وأن لا يخرجوا عن طريقهم. ("الصواعق المرسلة" / ١/ ص ٥٠٠ وما بعدها).

وكان أبو المعالي الجويني يقول في مجلسه: (كان الله ولا شيءَ، وهو الآن على ما كان عليه) يُعَرِّضُ بإنكار استواء الله على عرشه، فقال أبو جعفرٍ الهمْداني: (دعنا من ذكر العرش - أي لأنه ثبت بالسمع - وأخبرنا عن هذه الضرورة التي نجدها في قلوبنا، ما قال عارف قطُّ يا الله، إلا وجد من قلبه ضرورةً بطلب العلو، لا يلتفت يَمْنَةً ولا يَسْرَةً. فكيف ندفع هذه الضرورةَ من قلوبنا؟) فصرخ أبو المعالي ولطم رأسه وقال: (حيرني الهمْداني، حيرني الهمْداني) [٨١].

---

[٨١] قال الإمام ابن القيم -رحمه الله-: ذكر محمد بن طاهر المقدسي محدث الصوفية في كتابه عنه أنه حضر مجلس أبي المعالي الجويني وهو يقول: (كان الله ولا عرش، وهو الآن على ما كان عليه) وكلاماً من هذا المعنى. فقال: يا شيخ، دعنا من ذكر العرش، أخبرنا عن هذه الضرورة التي نجدها في قلوبنا، فإنه ما قال عارف قط: (يا الله) إلا وجد من قلبه ضرورة بطلب العلو، ولا يلتفت يمنة ولا يسرة. فكيف ندفع هذه الضرورة عن قلوبنا؟ قال: فصرخ أبو المعالي ولطم على رأسه وقال: (حيرني الهمداني، حيرني الهمداني). ("اجتماع الجيوش الإسلامية" / لابن القيم/ ص ١٧٤).

وقال شيخ الإسلام -رحمه الله- بعد ذكر قصة الجويني: وذلك لأن نفس استوائه على العرش ـ بعد أن خلق السموات والأرض في ستة أيام ـ علم بالسمع، الذي جاءت به الرسل، كما أخبر الله به

فهذه الأدلة الخمسة كلها تطابقت على إثبات علو الله بذاته فوقَ خلقه.

فأما قوله تعالى: ﴿وهو الله في السموات وفي الأرض يعلم سركم وجهركم﴾، وقولُه: ﴿وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله﴾، فليس معناهما أن الله في الأرض كما أنه في السماء، ومن توهم هذا أو نقله عن أحد من السلف فهو مخطئ في وهْمه وكاذب في نقله[٨٢].

في القرآن والتوراة. وأما كونه عالياً على مخلوقاته بائنا منهم، فهذا أمر معلوم بالفطرة الضرورية، التي يشترك فيها جميع بني آدم. وكل من كان بالله أعرف، وله أعبد، ودعاؤه له أكثر، وقلبه له أذكر، كان علمه الضروري بذلك أقوى وأكمل، فالفطرة مكملة بالفطرة المنزلة، فإن الفطرة تعلم الأمر مجملاً، والشريعة تفصله وتبينه، وتشهد بما لا تستقل الفطرة به، فهذا هذا، والله أعلم. ("مجموع الفتاوى" / ٤/ ص٤٥/ دار الوفاء/ إحالة).

[٨٢] ومن جعل هاتين الآيتين ناقضتين لأدلة علو الله فقد سلك طريق المبتدعة في ضرب النصوص بعضها ببعض.

قال الإمام ابن الوزير –رحمه الله–: فهذا كلام سيد ولد آدم والذي تقدم للشفاعة حين تأخر من تقدم فكيف أيها العقلاء يكون هذا كلامه وهو إمامنا وقدوتنا ومعلمنا ورسوله، ثم نتأول ممادح الرب الحميد المجيد نحن ونقول أنها تقتضي بحقائقها الذم وهو الذي لا أحد أحب اليه المدح منه، ولذلك مدح نفسه. فاتقوا الله وتأدبوا مع كتب الله ولا تضربوا بعضها ببعض، ولا تبادروا إلى القدح في ظواهرها والتحكم في تأويلاتها، والله سبحانه وتعالى هادينا الجميع وهو حسبنا ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. ("إيثار الحق على الخلق" / ص ٢٧٨).

وإنما معنى الآيةِ الأولى أن الله مألوه في السموات وفي الأرض، كل من فيهما فإنه يَتَأَلَّه إليه ويعبده. وقيل: معناها أن الله في السموات، ثم ابتدأ فقال: ﴿وفي الأرض يعلم سركم وجهركم﴾ أيْ إن الله يعلم سركم وجهركم في الأرض، فليس علوه فوق السموات بمانع من علمه سركم وجهركم في الأرض.

وأما الآية الثانية فمعناها أن الله إله في السماء وإله في الأرض، فألوهيته ثابتة فيهما وإن كان هو في السماء. ونظير ذلك قول القائل: فلان أمير في مكة وأمير في المدينة، أيْ إن إمارته ثابتة في البلدين، وإن كان هو في أحدهما، وهذا تعبير صحيح لغة وعرفاً، والله أعلم.

الباب التاسع: في الجهة

نريد بهذه الترجمة أن نبين هل الجهةُ ثابتة لله تعالى أو منتفية عنه؟ والتحقيق في هذا أنه لا يصح إطلاق الجهة على الله تعالى لا نفياً ولا إثباتاً، بل لابد من التفصيل.

فإن أريد بها جهةَ سُفل، فإنها منتفية عن الله وممتنعة عليه، لأن الله تعالى قد وجب له العلو المطلق بذاته وصفاته. وإن أريد بها جهةَ علو تحيط به، فهي منتفية عن الله وممتنعة عليه أيضاً، فإن الله أعظمُ وأجلُّ من أن يحيط به شيء من مخلوقاته، كيف وقد وسع كرسيه السموات والأرض؟ ﴿والأرض جميعاً قبضته يومَ القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون﴾؟ وإن أريد بها جهةَ علو تليق بعظمته وجلاله من غير إحاطة به، فهي حق ثابتة لله تعالى واجبة له.

قال الشيخ أبو محمد عبد القادر الجيلاني في كتابه الغُنْيَة: (وهو سبحانه بجهة العلو مستو على العرش، محتو على الملك) انتهى. ومعنى قوله: (مُحْتَوٍ على الملك) أنه محيط بالملك تبارك وتعالى.

فإن قيل: إذا نفيتم أن يكون شيء من مخلوقات الله محيطاً به، فما الجواب عما أثبته الله لنفسه في كتابه وعلى لسان نبيه ﷺ وأجمع عليه المسلمون من أن الله سبحانه في السماء؟

فالجواب: أن كون الله في السماء لا يقتضي أن السماء تحيط به. ومن قال ذلك فهو ضالّ إن قاله من عنده، وكاذب أو مخطئ إن نسبه إلى غيره. فإنّ كل من عرف عظمة الله

تعالى وإحاطتَه بكل شيء وأن الأرض جميعاً قبضته يوم القيامة وأنه يطوي السماء كطَيِّ السجل للكتب، فإنه لن يخطر بباله أن شيئاً من مخلوقاته يمكن أن يحيط به.

وعلى هذا فيُخَرَّجُ كونه في السماء على أحد معنيين:

الأول: أن يراد بالسماء العلوَّ، فيكون المعنى أن الله في العلوّ، أيْ في جهة العلو. والسماء بمعنى العلو ثابت في القرآن، قال الله تعالى: ﴿ويُنَزِّل عليكم من السماء ماء﴾ أيْ من العلو، لا من السماء نفسِها، لأن المطر ينزل من السحاب.

الثاني: أن تجعل (في) بمعنى (على)، فيكون المعنى أن الله على السماء. وقد جاءت (في) بمعنى (على) في مواضعَ كثيرةٍ من القرآن وغيرِه، قال الله تعالى: ﴿فسيحوا في الأرض﴾ أيْ على الأرض.

الباب العاشر: في استواء الله على عرشه

الاستواء في اللغة يطلق على معانٍ تدور على الكمال والانتهاء. وقد ورد في القرآن على ثلاثة أوجه: مطلقاً كقوله تعالى: ﴿ولما بلغ أشده واستوى﴾ أيْ كمل، ومُقيَّداً بإلى كقوله تعالى: ﴿ثم استوى إلى السماء﴾ أيْ قصد بإرادة تامة، ومقيَّداً بعلى كقوله تعالى: ﴿لتستووا على ظهوره﴾ ومعناه حينئذٍ العلوُّ والاستقرار. فاستواء الله على عرشه معناه علوّه واستقراره عليه، علوًّا واستقراراً يليق بجلاله وعظمته. وهو من صفاته الفعليةِ التي دلّ عليها الكتاب والسنة والإجماع[٨٣].

---

[٨٣] قال الإمام ابن القيم -رحمه الله-: وقولك: (الاستواء له عدة معان) تلبيس آخر فإن الاستواء المعدى بأداة (على) ليس له إلا معنى واحد، وأما الاستواء المطلق فله عدة معان، فإن العرب تقول: (استوى كذا) إذا انتهى وكمل، ومنه قوله تعالى: ﴿**ولما بلغ أشده واستوى**﴾ [القصص: ١٤]، وتقول: (استوى وكذا) إذا ساواه، نحو قولهم: (استوى الماء والخشبة)، و(استوى الليل والنهار)، وتقول: (استوى إلى كذا) إذا قصد إليه علواً وارتفاعاً، نحو: (استوى إلى السطح والجبل)، واستوى على كذا أي: إذا ارتفع عليه وعلا عليه. لا تعرف العرب غير هذا. فالاستواء في هذا التركيب نص لا يحتمل

فمن أدلة الكتاب قولُه تعالى: ﴿لرحمن على العرش استوى﴾. ومن أدلة السنة ما رواه الخلال في كتاب السنة بإسناد صحيح على شرط البخاري عن قتادة بن النعمان – رضي الله عنه – قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لما فرغ الله من خلقه استوى على عرشه» ذكره ابن القيم في "اجتماع الجيوش الإسلامية" ص٣٤.

وقال الشيخُ عبدُ القادر الجَيْلانِيُّ: (إنه مذكور في كل كتاب أنزله الله على كل نبي) انتهى.

غير معناه، كما هو نص في قوله: ﴿**ولما بلغ أشده واستوى**﴾ [القصص: ١٤] لا يحتمل غير معناه، ونصٌّ في قولهم: (استوى الليل والنهار) في معناه لا يحتمل غيره. فدعوا التلبيس فإنه لا يجدي عليكم إلا مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا . السادس: اللفظ الذي اطرد استعماله في معنى هو ظاهر فيه ولم يعهد استعماله في المعنى المؤول أو عهد استعماله فيه نادراً فتأويله حيث ورد وحمله على خلاف المعهود من استعماله باطل، فإنه يكون تلبيساً وتدليساً يناقض البيان والهداية. بل إذا أرادوا استعمال مثل هذا في غير معناه المعهود حفّوا به من القرائن ما يبين للسامع مرادهم به لئلا يسبق فهمه إلى معناه المألوف. ومن تأمل لغة القوم وكمال هذه اللغة وحكمة واضعها تبين له صحة ذلك. ("الصواعق المرسلة" / ١/ ص٢١-٢٢).

وقد أجمع أهل السنة على أن الله تعالى فوق عرشه. ولم يقل أحد منهم إنه ليس على العرش. ولا يمكن أحداً أن ينقل عنهم ذلك لا نصًّا ولا ظاهراً.

وقال رجل للإمام مالكٍ رحمه الله: يا أبا عبد الله ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ كيف استوى؟ فأطرق مالك برأسه حتى علاه الرُّحَضَاءُ - العرقُ - ثم قال: (الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وما أراك إلا مبتدعاً) ثم أَمَرَ به أن يُخْرَج[٨٤].

وقد رُوِيَ نحوُ هذا عن ربيعةَ بنِ أبي عبد الرحمن شيخِ مالك[٨٥].

---

(٨٤) **الأثر صحيح**، أخرجه البيهقي في "الاعتقاد" برقم (٥٥)، وابن مقرئ في معجمه (١٠٠٣)، والإمام الصابوني في "عقيدة السلف أصحاب الحديث"(ص٧)، والإمام اللالكائي في "شرح أصول اعتقاد" / ص٥٠٧).

(٨٥) أخرجه البيهقي في "الأسماء والصفات" (٨٣٧)، واللالكائي في "شرح أصول اعتقاد" (٥٠٨)، والذهبي في "العلو" (٣٥٢)، وهو **أثر صحيح**.

فقوله: (الاستواء غير مجهول) أيْ غير مجهول المعنى في اللغة، فإن معناه العلو والاستقرار. وقوله: (والكيف غير معقول) معناه أنا لا ندرك كيفية استواء الله على عرشه بعقولنا، وإنما طريق ذلك السمع، ولم يَرِدِ السمعُ بذكر الكيفية، فإذا انتفى عنها الدليلان العقليُّ والسمعيُّ كانت مجهولة يجب الكف عنها. وقوله: (الإيمان به واجب) معناه أن الإيمان باستواء الله على عرشه على الوجه اللائق واجب، لأن الله أخبر به عن نفسه، فوجب تصديقه والإيمان به. وقوله: (والسؤال عنه بدعة) معناه أن السؤال عن كيفية الاستواء بدعة، لأنه لم يكن معروفاً في عهد النبي ﷺ وأصحابه.

وهذا الذي ذكره الإمام مالك رحمه الله في الاستواء ميزان عامّ لجميع الصفات التي أثبتها الله لنفسه في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ[٨٦]، فإن معناها معلوم لنا، وأما كيفيتها فمجهولة لنا، لأن الله أخبرنا عنها ولم يخبر عن كيفيتها. ولأن الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات، فإذا كنا نثبت ذاتَ الله تعالى من غير تكييف لها، فكذلك يكون إثبات صفاته من غير تكييف.

وروي أيضاً عن أم سلمة رضي الله عنها، ولكن الأثر لا يصح، أخرجه اللالكائي في "شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة" (٦٦٣) وابن بطة في "الإبانة الكبرى" ، في سنده أم الحسن البصري، وهي خيرة لم يوثقها إمام معتبر، فلذلك قال الحافظ ابن حجر رحمه الله "تقريب التهذيب" (٢/ ٧٤٦): خيرة أم الحسن البصري مولاة أم سلمة مقبولة.

[٨٦] قال البيهقي رحمه الله بعد روايته: وعلى مثل هذا درج أكثر علمائنا في مسألة الاستواء وفي مسألة المجيء والإتيان والنزول. ("الاعتقاد"/ ١/ ص٦٧).

قال بعض أهل العلم: إذا قال لك الجهمي إن الله ينزل إلى السماء الدنيا، فكيف ينزل؟ فقل له: إن الله أخبرنا أنه ينزل، ولم يخبرنا كيف ينزل.

وقال آخر: إذا قال لك الجهمي في صفة من صفات الله كيف هي؟ فقل له: كيف هو بذاته؟ فإنه لا يمكن أن يكيف ذاته. فقل له: إذا كان لا يمكن تكييفُ ذاته، فكذلك لا يمكن تكييف صفاته، لأن الصفاتِ تابعةٌ للموصوف.

فإن قال قائل: إذا كان استواء الله على عرشه بمعنى العلو عليه، لزم من ذلك أن يكون أكبرَ من العرش أو أصغر أو مساوياً، وهذا يقتضي أن يكون جسماً، والجسم ممتنع على الله. فجوابه أن يقال: لا ريبَ أن الله أكبرُ من العرش، وأكبرُ من كل شيء. ولا يلزم على هذا القول شيء من اللوازم الباطلة التي يُنَزَّه الله عنها.

وأما قوله إن الجسم ممتنع على الله، فجوابه أن الكلام في الجسم وإطلاقَه على الله نفياً أو إثباتاً من البدع التي لم ترد في الكتاب والسنة وأقوال السلف. وهو من الألفاظ المجملة التي تحتاج إلى تفصيل. فإن أريد بالجسم الشيءُ المُحْدَثُ المركَّب المفتقرُ كلُّ جزء منه إلى الآخر، فهذا ممتنع على الرب الحي القيوم. وإن أريد بالجسم ما يقوم بنفسه ويَتَّصِف بما يليق به، فهذا غير ممتنع على الله تعالى، فإن الله قائم بنفسه متصف بالصفات الكاملة التي تليق به. لكن لما كان لفظ الجسم يحتمل ما هو حقّ وباطل بالنسبة إلى الله صار إطلاقُ لفظِه نفياً أو إثباتاً ممتنعاً على الله.

وهذه اللوازم التي يذكرها أهل البدع – ليتوصلوا بها إلى نفي ما أثبته الله لنفسه من صفات الكمال – على نوعين:

الأول: لوازمُ صحيحةٌ لا تنافي ما وجب لله من الكمال، فهذه حقٌّ يجب القولُ بها وبيانُ أنها غير ممتنعة على الله.

الثاني: لوازمُ فاسدةٌ تنافي ما وجب لله من الكمال، فهذه باطلة يجب نفيها وأن يبينَ أنها غير لازمة لنصوص الكتاب والسنة، لأن الكتاب والسنة حقّ ومعانيهما حقّ، والحقّ لا يمكن أن يلزم منه باطل أبداً.

فإن قال قائل: إذا فسرتمُ استواءَ الله على عرشه بعلوه عليه أوهم ذلك أن يكون الله محتاجاً إلى العرش ليُقِلَّه. فالجواب: أنّ كل من عرف عظمة الله تعالى وكمال قدرته وقوته وغناه فإنه لن يخطر بباله أن يكون الله محتاجاً إلى العرش لِيُقِلَّه. كيف والعرش وغيره من المخلوقات مفتقر إلى الله ومضطر إليه، لا قِوام له إلا به، ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره؟!

فإن قيل: هل يصح تفسير استواء الله على عرشه باستيلائه عليه، كما فسره به المعطلةُ فراراً من هذه اللوازم؟

فالجواب: أنه لا يصح. وذلك لوجوه، منها:

١- أنّ هذه اللوازمَ إنْ كانت حقّاً فإنها لا تمنع من تفسير الاستواء بمعناه الحقيقي، وإن كانت باطلاً فإنه لا يمكن أن تكون من لوازم نصوص الكتاب والسنة، ومن ظن أنها لازمةٌ لها فهو ضالّ.

٢- أن تفسيره بالاستيلاء يلزم عليه لوازم باطلة لا يمكن دفعها، كمخالفة إجماع السلف، وجواز أن يقال إن الله مستوٍ على الأرض ونحوِها مما ينزه الله عنه، وكون الله تعالى غيرَ مستولٍ على العرش حين خلق السمواتِ والأرضَ.

٣- أن تفسيره بالاستيلاء غير معروف في اللغة، فهو كذبٌ عليها. والقرآن نزل بلغة العرب، فلا يمكن أن نفسره بما لا يعرفونه في لغتهم.

٤- أن الذين فسروه بالاستيلاء كانوا مُقِرِّين بأن هذا معنىً مجازيٌّ. والمعنى المجازيُّ لا يُقْبَلُ إلا بعد تمام أربعة أمور:

الأولِ: الدليلِ الصحيحِ المتقضي لصرف الكلام عن حقيقته إلى مجازه.

الثاني: احتمالِ اللفظِ للمعنى المجازيِّ - الذي ادّعاه - من حيث اللغة.

الثالثِ: احتمالِ اللفظ للمعنى المجازيِّ الذي ادعاه في ذلك السياق المعيَّنِ. فإنه لا يلزم من احتمال اللفظ لمعنىً من المعاني من حيثُ الجملةُ، أن يكون محتمِلاً له في كل سياق، لأن قرائن الألفاظِ والأحوالِ قد تمنع بعض المعاني التي يحتملها اللفظ في الجملة.

الرابعِ: أن يُبَيِّنَ الدليلَ على أنّ المرادَ من المعاني المجازيةِ هو ما ادعاه، لأنه يجوز أن يكون المرادُ غيرَه، فلا بد من دليل على التعيين. والله أعلم[٨٧].

---

[٨٧] قال الإمام عثمان بن سعيد الدارمي -رحمه الله-: ادعى المعارض أن بعض الناس قال في قوله: ﴿**استوى على العرش**﴾ قال: استولى. قال: وقال بعضهم: استولى عليه أي: هو عال عليه. يقال للرجل علا الشيء أي ملكه وصار في سلطانه كما يقال: غلب فلان على مدينة كذا، ثم استوى على أمرها، يريد استولى ولا يريد الجلوس وهذه تأويلات محتملة.

فيقال لهذا المعارض العامة التائه المأبون الذي يهذي ولا يدري: هذه تأويلات محتملة لمعان هي أقبح الضلال وأفحش المحال ولا يتأولها من الناس إلا الجهال وكل راسخ في الضلال.

ويحك وهل من شيء لم يستول الله عليه في دعواك ولم يعلمه حتى خص العرش به من بين ما في السموات وما في الأرض وهل نعرف من مثقال ذرة في السموات وفي الأرض ليس الله مالكه ولا هو في سلطانه حتى خص العرش بالاستيلاء عليه من بين الأشياء وهل نازع الله من خلقه أحد أو غالبه على عرشه فيغلبه الله ثم يستوي على ما غالبه عليه مغالبة ومنازعة مع أنك قد صرحت بما قلنا إذ قسته في عرشه بمتغلب على مدينة فاستوى عليها بغلبة .

ففي دعواك لم يأمن الله أن يُغلَب لأن الغالب المستولي ربما غَلَب وربما غُلِب. فهل سمع سامع بجاهل أجهل بالله ممن يدعي أن الله استولى على عرشه مغالبة ثم يقيسه في ذلك بمتغلب فيقول ألا ترى

فصلٌ

والعرش في اللغة سرير الملك. قال الله تعالى عن يوسفَ: ﴿ورفع أبويه على العرش﴾، وقال عن ملكة سبإٍ: ﴿ولها عرش عظيم﴾(٨٨).

وأما عرش الرحمن الذي استوى عليه، فهو عرش عظيم محيط بالمخلوقات، وهو أعلاها، وأكبرها كما في حديث أبي ذرّ – رضي الله عنه – أن النبي ﷺ قال: ﴿ما السموات السبع والأرَضون السبعُ عند الكرسي إلا كحلْقة ملقاة في أرض فَلاة، وإن فضل العرش

أنه يقال للرجل غلب على مدينة واستولى على أهلها وأين ما انتحلت أنه لا يجوز لأحد أن يشبه الله بشيء من خلقه أو يتوهم فيه ما هو موجود في الخلق وقد شبهته بمتغلب غلب على مدينة بغلبة فاستولى عليه. (انتهى من "نقض الدارمي على بشر المريسي"/ ص٤٥٤-٤٥٥).

(٨٨) قال الجوهري –رحمه الله–: العَرْشُ: سريرُ الملك. ("الصحاح في اللغة" / ١/ ص ٤٥٨).

والدليل قول الله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ [يوسف: ١٠٠].

قال الإمام الحافظ محمد بن علي الكرجي القصاب رحمه الله في تفسير هذه الآية: حجة في أن العرش هو السرير لا محالة وأن عرش الله أيضاً –جل جلاله– هو سريره الذي استوى عليه لا العلم كما يزعم الجهلة من الجهمية. ("نكت القرآن الدالة على البيان"/ ١/ ص٦٢٥-٦٢٦/ دار ابن عفان).

على الكرسي كفضل الفلاة على تلك الحلْقة﴾، قال المؤلف رحمه الله في "الرسالة العرشية": (والحديثُ له طرق، وقد رواه أبو حاتم وابنُ حبانَ في صحيحه وأحمدُ في المسند وغيرُهم) انتهى.

والكرسي في اللغة السرير وما يُقعد عليه. أما الكرسي الذي أضافه الله إلى نفسه، فهو موضع قدميه تعالى. قال ابن عباسٍ رضي الله عنهما: (الكرسي موضع القدمين، والعرش لا يَقْدِرُ قدْرَه إلا الله – عز وجل –) رواه الحاكم في المستدركِ وقال: إنه على شرط الشيخين، وقد روي مرفوعاً والصواب أنه موقوف[٨٩].

وهذا المعنى الذي ذكره ابن عباس رضي الله عنهما في الكرسي هو المشهور بين أهل السنة، وهو المحفوظ عنه، وما روي عنه أنه العلم فغير محفوظ. وكذلك ما روي عن الحسن أنه العرش، ضعيفٌ لا يصحّ عنه، قاله ابن كثير رحمه الله تعالى.

---

[٨٩] **صحيح موقوف**، أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره برقم (٢٦٤٥) والحاكم في المستدرك برقم (٣١١٦).

الباب الحاديَ عشَرَ: في المعية

أثبت الله لنفسه في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ أنه مع خلقه. فمن أدلة الكتاب قوله تعالى: ﴿وهو معكم أينما كنتم﴾، ﴿وأن الله مع المؤمنين﴾، ﴿إنني معكما﴾.

ومن أدلة السنة قوله ﷺ: «أفضل الإيمان أن تعلم أن الله معك حيثما كنت»(٩٠)، وقوله ﷺ لصاحبه أبي بكر وهما في الغار: ﴿لا تَحْزَنْ إِنَّ الله مَعَنَا﴾ [التوبة:٤٠]. وقد أجمع على ذلك سلف الأمة وأئمتُها. والمعية في اللغة مطلق المقارنة والمصاحبة، لكن مقتضاها ولازِمَها يختلف باختلاف الإضافة وقرائن السياقِ والأحوالِ. فتارة تقتضي اختلاطاً، كما يقال: جعلت الماء مع اللبن. وتارةً تقتضي تهديداً وإنذاراً، كما يقول المؤدب للجاني: اذهب فأنا معك. وتارة تقتضي نصراً وتأييداً، كمن يقول لمن يستغيث به: أنا معك أنا معك. إلى غير ذلك من اللوازم والمقتضَيات المختلفةِ باختلاف الإضافة والقرائن والأحوال.

ومثل هذا اللفظ الذي يتفق في أصل معناه ويختلف مقتضاه وحكمُه باختلاف الإضافات والقرائن، يسميه بعض الناس (مشكِّكاً) لتشكيك المستمع هل هو من قبيل المشترك - الذي اتحد لفظه واختلف معناه - نظراً لاختلاف مقتضاه وحكمه؟ أو هو من قبيل المتواطئ - الذي اتحد لفظه ومعناه - نظراً لأصل المعنى؟ والتحقيق أنه نوع من المتواطئ، لأن واضعَ اللغة وضع هذا اللفظ بإزاء القدر المشترك، واختلافُ حكمه ومقتضاه

---

(٩٠) قال الشيخ في الشرح: هذا الحديث ضعيف من حيث السند لكنه حسنه بعض أهل العلم.

قال المعلق –وفقه الله-: هو ضعيف كما قاله الشيخ رحمه الله.

إنما هو بحسب الإضافات والقرائن لا بأصل الوضع. لكن لما كانت نوعاً خاصاً من المتواطئة، فلا بأس بتخصيصها بلفظ.

إذا تبين ذلك، فقد اتضح أن لفظَ المعيةِ المضافَ إلى الله مستعملٌ في حقيقته لا في مجازه. غير أن معية الله تعالى لخلقه معية تليق به، فليست كمعية المخلوق للمخلوق، بل هي أعلى وأكملُ، ولا يلحقها من اللوازم والخصائص ما يلحق معية المخلوق للمخلوق.

هذا، وقد فسر بعض السلف معيةَ الله لخلقه بعلمه بهم. وهذا تفسير للمعية ببعض لوازمها[٩١]. وغرضهم بذلك الردُّ على حلولية الجهمية - الذين قالوا إن الله بذاته في كل

---

[٩١] وليس بمعنى أن السلف قد وقعوا في التأويل –الذي بمعنى صرف اللفظ عن ظاهره- كما زعمه بعض الناس. بل ظاهر تلك الآيات تدل على معية العلم، فهي على حقيقتها.

قال الإمام ابن تيمية رحمه الله في أصل الكتاب: **هذه المعية تختلف أحكامها بحسب الموارد، فلما قال: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد:٤]، دل ظاهر الخطاب على أن حكم هذه المعية ومقتضاها أنه مطلع عليكم، شهيد عليكم، ومهيمن عالم بكم، وهذا معنى قول السلف: إنه معهم بعلمه. وهذا معنى قول السلف: إنه**

مكان واستدلوا بنصوص المعية - فبين هؤلاء السلفُ أنه لا يراد من المعية كونُ الله معنا بذاته، فإن هذا محالٌ عقلاً وشرعاً، لأنه ينافي ما وجب من علوه، ويقتضي أن تحيط به مخلوقاتُه، وهو أمر محال.

أقسام معية الله لخلقه

تنقسم معية الله لخلقه إلى قسمينِ عامةٍ وخاصةٍ.

فالعامة هي التي تقتضي الإحاطةَ بجميع الخلق من مؤمن وكافر وبَرّ وفاجر، في العلم والقدرة والتدبير والسلطان وغير ذلك من معاني الربوبية. وهذه المعية توجب لمن آمن

معهم بعلمه، وهذا ظاهر الخطاب وحقيقته، وكذلك في قوله: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة:٧]، إلى قوله: ﴿هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة:٧]، ولما قال النبي ﷺ لصاحبه في الغار: ﴿لا تَحْزَنْ إِنَّ الله مَعَنَا﴾ [التوبة:٤٠]، كان هذا أيضاً حقاً على ظاهره، ودلت الحال على أن حكم هذه المعية هنا معية الاطلاع والنصر والتأييد. ("الفتاوى الحموية الكبرى"/ ص٧٧-٧٨).

بها كمالَ المراقبة لله – عز وجل – ، ولهذا قال النبي ﷺ : «أفضل الإيمان أنْ تعلمَ أنّ الله معك حيثما كنت».

ومن أمثلةِ هذا القسمِ قولُه تعالى: ﴿وهو معكم أين ما كنتم﴾[٩٢]

[٩٢] قال الإمام الآجري –رحمه الله–: والذي يذهب إليه أهل العلم : أن الله عز وجل سبحانه على عرشه فوق سماواته ، وعلمه محيط بكل شيء ، قد أحاط علمه بجميع ما خلق في السماوات العلا ، وبجميع ما في سبع أرضين وما بينهما وما تحت الثرى ، يعلم السرّ وأخفى ، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، ويعلم الخطرة والهمة ، ويعلم ما توسوس به النفوس يسمع ويرى. ولا يعزب عن الله عز وجل مثقال ذرة في السماوات والأرضين وما بينهن ، إلا وقد أحاط علمه به فهو على عرشه سبحانه العلي الأعلى ترفع إليه أعمال العباد ، وهو أعلم بها من الملائكة الذين يرفعونها بالليل والنهار.

فإن قال قائل : فأيش معنى قوله : **﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾** الآية التي بها يحتجون؟ قيل له : علمُه عز وجل. والله على عرشه ، وعلمه محيط بهم ، وبكل شيء من خلقه. كذا فسره أهل العلم. والآية يدل أولها وآخرها على أنه العلم.

فإن قال قائل : كيف؟ قيل : قال الله عز وجل : **﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ**

﴿ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثرَ إلا هو معهم أينما كانوا﴾[٩٣].

وأما الخاصة فهي التي تقتضي النصرَ والتأييدَ لمن أضيفت له، وهي مختصة بمن يستحق ذلك من الرسل وأتباعِهم. وهذه المعية توجب لمن آمن بها كمالَ الثبات والقوة.

ومن أمثلتها قوله تعالى: ﴿وأن الله مع المؤمنين﴾ ﴿إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون﴾ ﴿إنني معكما أسمع وأرى﴾، وقولُه عن نبيه ﷺ: «لا تحزن إن الله معنا»[٩٤].

إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ وابتدأ الله عز وجل الآية بالعلم، وختمها بالعلم، فعلمه عز وجل محيط بجميع خلقه، وهو على عرشه، وهذا قول المسلمين. (انتهى من "الشريعة" / للآجري / ص٢٣٢-٢٣٣/ ط. دار الحديث).

[٩٣] فمعيته هنا معية العلم والبصر ونحو ذلك، لا معية الذات، لأن بداية الكلام ونهايته يدلّ على المراد.

قال الإمام أحمد بن حنبل -رحمه الله-: قالوا: إن الله معنا وفينا. فقلنا: الله جل ثناؤه يقول: **﴿ألم تر أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض﴾**. ثم قال: **﴿ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم﴾** يعني: الله بعلمه، **﴿ولا خمسة إلا هو﴾** يعني: الله بعلمه **﴿سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا وهو معهم﴾** يعني: بعلمه فيهم **﴿أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم﴾**. يفتح الخير بعلمه ويختم الخير بعلمه. انتهى. ("الرد على الزنادقة والجهمية" / للإمام أحمد/ ص١٠٣/ ط. دار المنهاج).

[٩٤] قال الإمام ابن القيم -رحمه الله-: وهذه المعية معية خاصة غير معية العلم والإحاطة العامة، فهي معية بالقرب والولاية والمحبة النصرة والتوفيق كقوله تعالى: **﴿إن الله مع الذين اتقوا﴾ ﴿والله مع الصابرين﴾ ﴿وإن الله لمع المحسنين﴾ ﴿لا تحزن إن الله معنا﴾**، وللذاكر من هذه المعية نصيب وافر كما في الحديث الإلهي: «**أنا مع عبدي ما ذكرني**». ("الوابل الصيب" / ص ٩٣).

فإن قيل: هل المعية من صفات الله الذاتيةِ أو من صفاته الفعليةِ؟

فالجواب: أن المعية العامةَ من الصفات الذاتية، لأن مقتضياتِها ثابتة لله تعالى أزلاً وأبداً. وأما المعيةُ الخاصة فهي من الصفات الفعليةِ، لأن مقتضياتِها تابعة لأسبابها توجد بوجودها وتنتفي بانتفائها.

الباب الثاني عشَرَ: في الجمع بين نصوص علو الله بذاته ومعيته

قبل أن نذكر الجمع بينهما نحب أن نقدم قاعدة نافعة أشار إليها المؤلف رحمه الله في كتاب "العقل والنقل" ص ٤٣-٤٤ ج ١، وخلاصتها: (أنه إذا قيل بالتعارض بين دليلين، فإما أن يكونا قطعيَّيْن أو ظنيَّيْن أو أحدُهما قطعياً والآخرُ ظنياً. فهذه ثلاثة أقسام. الأول القطعيان، وهما ما يقطع العقل بثبوت مدلولهما. فالتعارض بينهما محال، لأن القول بجواز تعارضهما، يستلزم إما وجوبَ ارتفاع أحدهما، وهو محال لأن القطعيَّ واجبُ الثبوت، وإما ثبوتَ كل منهما مع التعارض، وهو محال أيضاً لأنه جمع بين النقيضين.

فإن ظُنَّ التعارضُ بينهما، فإما أن لا يكونا قطعيَّيْنِ، وإما أن لا يكونَ بينهما تعارض بحيثُ يُحمل أحدُهما على وجهٍ والثاني على وجه آخر.

ولا يَرِد على ذلك ما يثبت نسخُه من نصوص الكتاب والسنة القطعية، لأن الدليل المنسوخَ غير قائم، فلا معارضَ للناسخ.

الثاني: أن يكونا ظنيَّيْن، إما من حيثُ الدَّلالةُ وإما من حيثُ الثبوتُ. فيطلب الترجيح بينهما، ثم يقدم الراجح.

الثالث: أن يكون أحدهما قطعياً والآخر ظنياً. فيُقدم القطعيُّ باتفاق العقلاء، لأن اليقين لا يُدفع بالظن. انتهى.

إذا تبين هذا فنقول: لا ريب أن النصوصَ قد جاءت بإثبات علو الله بذاته فوق خلقه وأنه معهم، وكلّ منهما قطعي الثبوت والدَّلالة.

وقد جمع الله بينهما في قوله تعالى: ﴿هو الذي خلق السمواتِ والأرضَ في ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أين ما كنتم والله بما تعملون بصير﴾. ففي هذه الآية أثبت الله تعالى استواءَه على العرش - الذي هو أعلى المخلوقات - وأثبت أنه معنا، وليس بينهما تعارض، فإن الجمع بينهما ممكن، وبيانُ إمكانه من وجوه:

الأول: أن النصوص جمعت بينهما، فيمتنع أن يكون اجتماعُهما مُحالاً، لأن النصوص لا تدل على محال. ومن ظن دلالتها عليه فقد أخطأ، فليعد النظر مرةً بعد أخرى مستعيناً بالله سائلاً منه الهدايةَ والتوفيقَ باذلاً جهدَه في الوصول إلى معرفة الحق. فإن تبين له الحقُّ فلْيَحمَدِ الله على ذلك، وإلا فلْيَكِلِ الأمرَ إلى عالمه وليقل: ﴿آمنا به كلٌّ من عند ربنا﴾، ﴿سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم﴾.

الثاني: أنه لا منافاةَ بين معنى العلو والمعي. فإن المعيةَ لا تستلزم الاختلاطَ والحلولَ في المكان كما تقدم، فقد يكون الشيء عالياً بذاته وتضاف إليه المعية، كما يقال: (ما زلنا نسير والقمرُ معنا) مع أن القمر في السماء، ولا يُعَدُّ ذلك تناقضاً لا في اللفظ ولا في المعنى، فإن المخاطَب يعرف معنى المعية هنا، وأنه لا يمكن أن يكون مقتضاها أن القمر في الأرض. فإذا جاز اجتماع العلو والمعية في حق المخلوق، ففي حق الخالق أولى.

الثالث: أنه لو فُرِض أن بين معنى العلو والمعية تناقضاً وتعارضاً في حق المخلوق، فإن ذلك لا يلزم في حق الخالق. لأن الله تعالى ليس كمثله شيءٌ في جميع صفاته، فلا تقاس معيته بمعية خلقه، ولا تقتضي معيتُه لهم أن يكون مختلطاً بهم أو حالاً في أمكنتهم، لوجوب علوه بذاته، ولأنه لا يحيط به شيء من مخلوقاته بل هو بكل شيء محيط.

وبنحو هذه الوجوه يمكن الجمع بين ما ثبت من علو الله بذاته وكونِه قِبَلَ المصلي، فيقال: الجمع بينهما من وجوه:

الأول: أن النصوص جمعت بينهما، والنصوص لا تأتي بالمحال.

الثاني: أنه لا منافاة بين معنى العلو والمقابلة، فقد يكون الشيء عالياً وهو مقابل، لأن المقابلة لا تستلزم المحاذاة. ألا ترى أن الرجل ينظر إلى الشمس حال بزوغها فيقول: (إنها قِبَلَ وجهي) مع أنها في السماء، ولا يعد ذلك تناقضاً في اللفظ ولا في المعنى، فإذا جاز هذا في حق المخلوق ففي حق الخالق أولى.

الثالث: أنه لو فُرض أن بين معنى العلو والمقابلة تناقضاً وتعارضاً في حق المخلوق، فإن ذلك لا يلزم في حق الخالق. لأن الله تعالى ليس كمثله شيء في جميع صفاته، فلا يقتضي كونه قِبَلَ وجه المصلي أن يكون في المكانِ أو الحائطِ الذي يصلي إليه، لوجوب علوه بذاته، ولأنه لا يحيط به شيء من المخلوقات بل هو بكل شيء محيط.

الباب الثالثَ عشَرَ: في نزول الله إلى السماء الدنيا

في الصحيحين عن أبي هريرة – رضي الله عنه – أن النبي ﷺ قال: «ينزل ربنا إلى السماء الدنيا حين يبقي ثلث الليل الآخِر، فيقول: من يدعوني فأستجيبَ له من يسألُني فأعطيَه من يستغفرُنى فأغفرَ له». وقد روى هذا الحديثَ عن النبي ﷺ نحوُ ثمانٍ وعشرينَ نفساً من الصحابة – رضي الله عنهم – . واتفق أهل السنة على تَلَقِّي ذلك بالقَبول.

ونزوله تعالى إلى السماء الدنيا من صفاتِه الفعليةِ التي تتعلق بمشيئته وحكمته، وهو نزول حقيقي يليق بجلاله وعظمته. ولا يصح تحريف معناه إلى نزول أمره أو رحمته أو مَلَك من ملائكته، فإن هذا باطل لوجوه:

الأول: أنه خلاف ظاهر الحديث، لأن النبي ﷺ أضاف النزولَ إلى الله، والأصل أن الشيء إنما يضاف إلى من وقع منه أو قام به، فإذا صرف إلى غيره كان ذلك تحريفاً يخالف الأصل.

الثاني: أن تفسيره بذلك يقتضي أن يكون في الكلام شيءٌ محذوفٌ، والأصل عدم الحذف.

الثالث: أن نزول أمره أو رحمته لا يختص بهذا الجزء من الليل، بل أمره ورحمته ينزلان كلَّ وقت.

فإن قيل: المراد نزول أمر خاصّ ورحمة خاصة، وهذا لا يلزم أن يكون كلَّ وقت.

فالجواب: أنه لو فرض صحةُ هذا التقدير والتأويل، فإن الحديث يدل على أن منتهى نزولِ هذا الشيءِ هو السماءُ الدنيا. وأيُّ فائدة لنا في نزول رحمةٍ إلى السماء الدنيا حتى يخبرنا النبي ﷺ عنها؟!

الرابع: أن الحديث دلَّ على أن الذي ينزل يقول: «من يدعوني فأستجيبَ له، من يسألُني فأعطيَه، من يستغفرُني فأغفرَ له» ولا يمكن أن يقول ذلك أحدٌ سوى اللهِ تعالى.

فصلٌ: في الجمع بين نصوص علوِّ الله تعالى بذاته ونزولِه إلى السماء الدنيا

علو الله بذاته من صفاته الذاتيةِ التي لا يمكن أن ينفكَّ عنها. وهو لا ينافي ما جاءت به النصوصُ من نزوله إلى السماء الدنيا. والجمع بينهما من وجهين:

الأول: أن النصوص جمعت بينهما، والنصوص لا تأتي بالمحال كما تقدم.

الثاني: أن الله ليس كمثله شيء في جميع صفاته، فليس نزوله كنزول المخلوقين حتى يقالَ إنه ينافي علوَّه ويناقضُه، والله أعلم.

الباب الرابعَ عشَرَ: في إثبات الوجه لله تعالى

مذهب أهل السنة والجماعة أن لله وجهاً حقيقياً يليق به، موصوفاً بالجلال والإكرام. وقد دلّ على ثبوته لله الكتابُ والسنةُ. فمن أدلة الكتاب قوله تعالى: ﴿ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام﴾. ومن أدلة السنة قول النبي ﷺ في الدعاء المأثور: «وأسألك لذةَ النظر إلى وجهك والشوقَ إلى لقائك»[٩٥].

فوجه الله تعالى من صفاته الذاتيةِ الثابتةِ له حقيقةً على الوجه اللائق به[٩٦].

---

(٩٥) **صحيح لغيره**، أخرجه الإمام أحمد (١٨٣٥١) وأبو يعلى (١٦٢٤) وابن حبان (١٩٧١) وغيرهم عن عمار بن ياسر رضي الله عنهما مرفوعاً.

(٩٦) وليس إثباته كما أثبته الله تشبيهاً عند أهل النقل والعقل.

قال الإمام ابن خزيمة –رحمه الله–: قد بيّن الله عز وجل في محكم تنزيله الذي هو مثبت بين الدفتين أن له وجها، وصفه بالجلال والإكرام والبقاء، فقال جل وعلا: ﴿**ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام**﴾، ونفى ربنا جل وعلا عن وجهه الهلاك في قوله: ﴿**كل شيء هالك إلا وجهه**﴾. وزعم بعض جهلة الجهمية أن الله عز وجل إنما وصف في هذه الآية نفسه التي أضاف إليها الجلال، بقوله: ﴿**تبارك**

اسم ربك ذي الجلال والإكرام﴾، وزعمت أن الرب هو: ذو الجلال والإكرام، لا الوجه. قال أبو بكر: أقول وبالله توفيقي: هذه دعوى، يدّعيها جاهل بلغة العرب ، لأن الله عز وجل قال: ﴿**ويبقى وجهُ ربِّك ذو الجلال والإكرام﴾** فذكر الوجه مضموماً في هذا الموضع، مرفوعاً، وذكر الرب بخفض الباء بإضافة الوجه ، ولو كان قوله : ﴿**ذو الجلال والإكرام﴾** مردوداً إلى ذكر الرب في هذا الموضوع لكانت القراء ة: (ذي الجلال والإكرام) مخفوضا ، كما كان الباء مخفوضاً في ذكر الرب جل وعلا. ألم تسمع قوله تبارك وتعالى: ﴿**تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام﴾**، فلما كان (الجلال والإكرام) في هذه الآية صفة للرب ، خفض ذي خفض الباء الذي ذكر في قوله : ربك ، ولما كان الوجه في تلك الآية مرفوعة ، التي كانت صفة الوجه مرفوعة ، فقال : (ذو الجلال والإكرام) فتفهموا يا ذوي الحجا هذا البيان ، الذي هو مفهوم في خطاب العرب، ولا تغالطوا فتتركوا سواء السبيل. وفي هاتين الآيتين دلالة أن وجه الله صفة من صفات الله، صفات الذات، لا أن وجه الله هو: الله ، ولا أن وجهه غيره، كما زعمت المعطلة الجهمية، لأن وجه الله لو كان الله لقرئ : (ويبقى وجه ربك ذي الجلال والإكرام) فما لمن لا يفهم هذا القدر من العربية ووضع الكتب على علماء أهل الآثار القائلين بكتاب ربهم وسنة نبيهم ﷺ وزعمت الجهمية عليهم لعائن الله أن أهل السنة ومتبعي الآثار ، القائلين بكتاب ربهم وسنة نبيهم ﷺ ، المثبتين لله عز وجل من صفاته ما وصف الله به نفسه في محكم تنزيله المثبت بين الدفتين وعلى لسان نبيه المصطفى ﷺ بنقل العدل عن العدل موصولاً إليه مشبهة، جهلا منهم بكتاب ربنا وسنة نبينا ﷺ وقلة معرفتهم بلغة العرب ، الذين بلغتهم خوطبنا، وقد ذكرنا من الكتاب والسنة في ذكر وجه ربنا بما فيه الغنية والكفاية.

ونزيده شرحا ، فاسمعوا الآن أيها العقلاء ، ما نذكر من جنس اللغة السائرة بين العرب، هل يقع اسم المشبهة على أهل الآثار ومتبعي السنن؟ نحن نقول: وعلماؤنا جميعاً في جميع الأقطار: إن لمعبودنا عز وجل وجها كما أعلمنا الله في محكم تنزيله، فذواه بالجلال والإكرام، وحكم له بالبقاء، ونفى عنه الهلاك ، ونقول : إن لوجه ربنا عز وجل من النور والضياء والبهاء ما لو كشف حجابه لأحرقت سبحات وجهه كل شيء أدركه بصره، محجوب عن أبصار أهل الدنيا ، لا يراه بشر ما دام في الدنيا الفانية. ونقول: إن وجه ربنا القديم لا يزال باقياً، فنفى عنه الهلاك والفناء. ونقول : إن لبني آدم وجوها كتب الله عليها الهلاك ، ونفى عنها الجلال والإكرام غير موصوفة بالنور والضياء والبهاء التي وصف الله بها وجهه تدرك وجوه بني آدم أبصار أهل الدنيا ، لا تحرق لأحد شعرة فما فوقها ، لنفي السبحات عنها ، التي بينها نبينا المصطفى ﷺ لوجه خالقنا ونقول: إن وجوه بني آدم محدثة مخلوقة، لم تكن، فكونها الله بعد أن لم تكن مخلوقة ، أوجدها بعد ما كانت عدما ، وإن جميع وجوه بني آدم فانية غير باقية، تصير جميعاً ميتاً، ثم تصير رميما ، ثم ينشئها الله بعد ما قد صارت رميماً، فتلقى من النشور والحشر والوقوف بين يدي خالقها في القيامة، ومن المحاسبة بما قدمت يداه وكسبه في الدنيا ما لا يعلم صفته غير الخالق البارئ ثم تصير إما إلى جنة منعمة فيها، أو إلى النار معذبة فيها. فهل يخطر يا ذوي الحجا ببال عاقل مركب فيه العقل، يفهم لغة العرب، ويعرف خطابها، ويعلم التشبيه، أن هذا الوجه شبيه بذاك الوجه؟ وهل ها هنا أيها العقلاء، تشبيه وجه ربنا جل ثناؤه الذي هو كما وصفنا وبينا صفته من الكتاب والسنة بتشبيه وجوه بني آدم ، التي ذكرناها ووصفناها؟ غير اتفاق اسم الوجه، وإيقاع اسم الوجه على وجه بني آدم،

ولا يصح تحريف معناه إلى الثواب لوجوه، منها:

كما سمى الله وجهه وجها، ولو كان تشبيهاً من علمائنا لكان كل قائل: أن لبني آدم وجها ، وللخنازير والقردة ، والكلاب، والسباع، والحمير، والبغال، والحيات، والعقارب، وجوها، قد شبه وجوه بني آدم بوجوه الخنازير والقردة ، والكلاب وغيرها مما ذكرت ولست أحسب أن عقل الجهمية المعطلة عند نفسه ، لو قال له أكرم الناس عليه : وجهك يشبه وجه الخنزير والقرد ، والدب ، والكلب ، والحمار، والبغل ونحو هذا إلا غضب، لأنه خرج من سوء الأدب في الفحش في المنطق من الشتم للمشبه وجهه بوجه ما ذكرنا ، ولعله بعد يقذفه ، ويقذف أبويه ولست أحسب أن عاقلاً يسمع هذا القائل المشبه وجه ابن آدم بوجوه ما ذكرنا إلا ويرميه بالكذب، والزور، والبهت أو بالعته، والخبل، أو يحكم عليه بزوال العقل، ورفع القلم، لتشبيه وجه ابن آدم بوجوه ما ذكرنا فتفكروا يا ذوي الألباب، أو وجوه ما ذكرنا أقرب شبها بوجوه بني آدم ، أو وجه خالقنا بوجوه بني آدم؟ فإذا لم تطلق العرب تشبيه وجوه بني آدم بوجوه ما ذكرنا من السباع واسم الوجه، قد يقع على جميع وجوهها كما يقع اسم الوجه على وجوه بني آدم ، فكيف يلزم أن يقال لنا : أنتم مشبهة ؟ ووجوه بني آدم ووجوه ما ذكرنا من السباع والبهائم محدثة، كلها مخلوقة، قد قضى الله فناءها وهلاكها وقد كانت عدما ، فكونها الله وخلقها وأحدثها، وجميع ما ذكرناه من السباع والبهائم لوجوهها أبصار ، وخدود وجباة ، وأنوف وألسنة ، وأفواه ، وأسنان، وشفاه ولا يقول مركب فيه العقل لأحد من بني آدم: وجهك شبيه بوجه الخنزير، ولا عينك شبيه بعين قرد، ولا فمك فم دب، ولا شفتاك كشفتي كلب، ولا خدك خد ذئب إلا على المشاتمة، كما يرمي الرامي الإنسان بما ليس فيه فإذا كان ما ذكرنا على ما وصفنا ثبت عند العقلاء وأهل التمييز، أن من رمى أهل الآثار القائلين بكتاب ربهم وسنة نبيهم ﷺ بالتشبيه فقد قال الباطل والكذب، والزور والبهتان، وخالف الكتاب والسنة، وخرج من لسان العرب.

(انتهى من "التوحيد" / ١/ ص٣٨).

أولاً: أنه خلاف ظاهر النص، وما كان مخالفاً لظاهر النص فإنه يحتاج إلى دليل، ولا دليل على ذلك.

ثانياً: أن هذا الوجهَ ورد في النصوص مضافاً إلى الله تعالى، والمضاف إلى الله إما أن يكون شيئاً قائماً بنفسه وإما أن يكون غيرَ قائم بنفسه، فإن كان قائماً بنفسه فهو مخلوق وليس من صفاته - كبيت الله وناقة الله - وإنما أضيف إليه إما للتشريف وإما من باب إضافة المملوك والمخلوق إلى مالكه وخالقه، وإن كان غيرَ قائم بنفسه فهو من صفات الله وليس بمخلوق، كعلم الله وقدرته وعزته وكلامه ويده وعينه ونحِو ذلك. والوجه بلا ريبٍ من هذا النوع، فإضافته إلى الله من باب إضافة الصفة إلى الموصوف.

ثالثاً: أن الثوابَ مخلوق بائن عن الله تعالى، والوجهَ صفةٌ من صفات الله غيرُ مخلوق ولا بائنٍ، فكيف يفسر هذا بهذا؟!

رابعاً: أن ذلك الوجهَ وُصف في النصوص بالجلال والإكرام، وبأن له نوراً يُستعاذ به، وبأن له سُبُحاتٍ تُحرق ما انتهى إليه بصره من خلقه، وكل هذه الأوصاف تمنع أن يكون المرادُ به الثوابَ، والله أعلم.

الباب الخامسَ عشَرَ: في يدَيِ الله - عز وجل –

مذهب أهل السنة والجماعة أن لله تعالى يدين اثنتين مبسوطتين بالعطاء والنِعَم. وهما من صفاته الذاتيةِ الثابتةِ له حقيقةً على الوجه اللائقِ به. وقد دل على ثبوتهما الكتاب والسنة. فمن أدلة الكتاب قوله تعالى: ﴿ما منعك أن تسجد لما خلقتُ بيديَّ﴾[٩٧].

ومن أدلة السنة قوله ﷺ : «يد الله مَلأَى لا تَغيضها نفقةٌ، سَحَّاءُ الليلَ والنهارَ. أرأيتم ما أنفق منذ خلق السمواتِ والأرضَ؟ فإنه لم يَغِض ما في يمينه»[٩٨].

---

[٩٧] هذه الآية دليل واضح على إثبات اليدين لله تعالى فامتنع أن يكون المعنى: النعمة أو القدرة.

قال الإمام ابن خزيمة –رحمه الله–: وزعمت الجهمية المعطلة: أن معنى قوله: ﴿**بل يداه مبسوطتان**﴾ [المائدة: ٦٤] أي نعمتاه، وهذا تبديل لا تأويل. والدليل على نقص دعواهم هذه أن نعم الله كثيرة لا يحصيها إلا الخالق البارئ، ولله يدان لا أكثر منهما كما قال لإبليس عليه لعنة الله: ﴿**ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي**﴾ [ص: ٧٥] ، فأعلمنا جل وعلا أنه خلق آدم بيديه، فمن زعم أنه خلق آدم بنعمته كان مبدلا لكلام الله، وقال الله عز وجل: ﴿**والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه**﴾، أفلا يعقل أهل الإيمان أن الأرض جميعا لا تكون قبضة إحدى نعمتيه يوم القيامة، ولا أن السموات مطويات بالنعمة الأخرى ألا يعقل ذوو الحجا من المؤمنين أن هذه الدعوى التي يدعيها الجهمية جهل، أو تجاهل شر من الجهل، بل الأرض جميعا قبضة ربنا جل وعلا في إحدى يديه يوم القيامة، والسموات مطويات بيمينه. ("التوحيد" / لابن خزيمة / ص ١٩٧).

[٩٨] أصل الحديث أخرجه البخاري (٧٤١٩) ومسلم (٩٩٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وجاء في رواية بلفظ: «**بيده الأخرى القبض**» أخرجه البخاري (٧٤١٩) ومسلم (٩٩٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وقد أجمع أهل السنة على أنهما يدان حقيقيتان لا تماثلان أيدي المخلوقين. ولا يصح تحريف معناهما إلى القوة أو النعمة أو نحوِ ذلك لوجوه، منها:

أولاً: أنه صَرْف للكلام عن حقيقته إلى مجازه بلا دليل.

ثانياً: أنه معنىً تأباه اللغة في مثل السياق الذي جاءت به مضافةً إلى الله تعالى، فإن الله قال: ﴿لِما خلقت بيديّ﴾، ولا يصح أن يكون المعنى لما خلقت بنعمتَيَّ أو قوتَيَّ.

ثالثاً: أنه ورد إضافة اليد إلى الله – سبحانه وتعالى – بصيغة التثنية، ولم يَرِد في الكتاب والسنة – ولا في موضع واحد – إضافةُ النعمة والقوة إلى الله بصيغة التثنية. فكيف يفسر هذا بهذا؟!

رابعاً: أنه لو كان المرادُ بهما القوةَ، لصحَّ أن يقال إن الله خلق إبليسَ بيده، ونحوُ ذلك. وهذا ممتنع. ولو كان جائزاً لاحتج به إبليسُ على ربه حين قال له: ﴿ما منعك أن تسجد لما خلقتُ بيديَّ﴾.

خامساً: أن اليدَ التي أضافها الله إلى نفسه وردت على وجوهٍ تمنع أن يكون المرادُ بها النعمةَ أو القوةَ، فجاءت بلفظ اليدِ والكفّ، وجاء إثبات الأصابعِ لله تعالى، والقبضِ والهزِّ

كقوله ﷺ : «يقبض الله سمواتِه بيده والأرضَ باليد الأخرى، ثم يهزهن ويقول: أنا الملك»[٩٩]. وهذه الوجوه تمنع أن يكون المرادُ بهما النعمةَ أو القوةَ.

[٩٩] عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، أخرجه البخاري (٧٥١٣) ومسلم ((٢٧٨٦).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أخرجه البخاري (٦٥١٩).

وعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما ، أخرجه البخاري (٧٤١٢) ومسلم (٢٧٨٨).



الباب السادسَ عشَرَ: في عينَيِ الله تعالى

مذهب أهل السنة والجماعة أن لله عينين اثنتين، ينظر بهما حقيقةً، على الوجه اللائق به. وهما من الصفات الذاتية الثابتة بالكتاب والسنة. فمن أدلة الكتاب قوله تعالى: ﴿تجري بأعيننا﴾. ومن أدلة السنة قول النبي ﷺ: «وإن ربكم ليس بأعورَ»[١٠٠]**،**

«ينظر إليكم أَزِلِين قَنِطِين»[١٠١]**، «حجابه النور لو كشفه لأحرقت سُبُحاتُ وجهه ما انتهى إليه بصرُه من خلقه»**[١٠٢]**.**

---

[١٠٠] أخرجه البخاري (٧٤٠٧) ومسلم (١٦٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما. وقول النبي ﷺ: «**إن الله لا يخفى عليكم، إن الله ليس بأعور**» – وأشار بيده إلى عينه –، هذا دليل واضح جدّاً على أن الله له عينان تليقان بجلاله وعظمته.

[١٠١] **الحديث ضعيف**. أخرجه أحمد (١٦٢٣٢) والطبراني في "الكبير" (٤٦٩) والطيالسي (١٠٩٢) من طريق وكيع بن عدس عن أبي رزين العقيلي رضي الله عنه. ووكيع بن عدس مجهول.

[١٠٢] أخرجه مسلم (١٧٩) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

فهما عينان حقيقيتان لا تماثلان أَعْيُنَ المخلوقين. ولا يصح تحريف معناهما إلى العلم والرؤية لوجوه، منها:

أولاً: أنه صرف للكلام عن حقيقته إلى مجازه بلا دليل[١٠٣].

ثانياً: أن في النصوص ما يمنع ذلك مثلُ قوله ﷺ: «ينظر إليكم»، «لأحرقت سُبُحاتُ وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»، «وإن ربكم ليس بأعور».

[١٠٣] قال الشيخ في الشرح: ..أفادنا المؤلف من قوله (بلا دليل) أنه يجوز صرف الكلام من حقيقته إلى مجازه بدليل. طيب، وإذا وجد دليل يعين المجاز، فهل نقول أنه مجاز صرف عن ظاهره بدليل؟ أو نقول إن هذا الدليل جعل ما يخالف الظاهر هو الحقيقة؟ هذا هو الصحيح. ومعلوم أن كتابتي لهذا الكتاب قبل أن يتبين لي صحة ما ذهب إليه شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم وجماعة من أهل العلم أنه لا مجاز في اللغة العربية لاسيما في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ. والله أعلم. انتهى.

الباب السابعَ عشَرَ: في الوجوه التي وردت عليها صفتا اليدين والعينين

وردت صفتا اليدين والعينين في النصوص مضافةً إلى الله تعالى على ثلاثة أوجهٍ الإفرادِ والتثنيةِ والجمعِ. فمن أمثلة الإفراد قوله تعالى: ﴿تبارك الذي بيده الملك﴾، ﴿ولتصنع على عيني﴾.

ومن أمثلة الجمع قوله تعالى: ﴿أولم يرَوْا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً﴾، ﴿تجري بأعيننا﴾[١٠٤].

---

[١٠٤] هذا يدل على أن الله تعالى تارة يوصف بصيغة المفرد لبيان الجنس، وتارة بصيغة الجمع، لا تدل على العدد وإنما هي للتعظيم ولمناسبة المضاف إليه الذي على صيغة الجمع أيضاً، للتعظيم.

قال الإمام ابن القيم -رحمه الله-: وقال في قصة موسى ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ [طه: ٣٩] فذكر العين المفردة مضافة إلى الضمير المفرد والأعين مجموعة مضافة إلى ضمير الجمع وذكر العين مفردة لا يدل على أنها عين واحدة ليس إلا كما يقول القائل أفعل هذا على عيني وأجيئك على عيني وأحمله على عيني ولا يريد به أن له عينا واحدة فلو فهم أحد هذا من ظاهر كلام المخلوق لعد أخرق. وأما إذا

ومن أمثلة التثنية قوله تعالى: ﴿بل يداه مبسوطتان﴾، وقول النبي ﷺ : «إذا قام العبد في الصلاة، قام بين عيني الرحمن»[١٠٥]، هكذا هو في "مختصر الصواعق" عن عطاءٍ عن أبي هريرة عن النبي ﷺ ولم يعزُه. ولم ترد صفة العينين في القرآن بصورة التثنية.

هذه هي الوجوه التي وردت عليها صفتا اليدين والعينين. والجمع بين هذه الوجوه أن يقال: إن الإفراد لا ينافي التثنيةَ ولا الجمعَ، لأن المفرد المضافَ يَعُمُّ فيتناول كلَّ ما ثبت لله من يد أو عين واحدةً كانت أو أكثرَ.

وأما الجمع بين ما جاء بلفظ التثنية وبلفظ الجمع: فإن قلنا أقلُّ الجمع اثنان، فلا منافاةَ أصلاً بين صيغتي التثنية والجمع لاتحاد مدلوليهما. وإن قلنا أقلُّ الجمع ثلاثة – وهو المشهور – فالجمع بينهما أن يقال إنه لا يُراد من صيغة الجمع مدلولُها – الذي هو ثلاثة فأكثرُ – وإنما أُريد بها – والله أعلم – التعظيمُ والمناسبةُ، أعني مناسبةَ المضاف للمضاف إليه. فإن المضاف إليه – وهو (نا) – يراد به هنا التعظيمُ قطعاً، فناسب أن يؤتى بالمضاف بصيغة الجمع ليناسب المضاف إليه، فإن الجمعَ أدلُّ على التعظيم من الإفراد والتثنية، وإذا كان كل من المضاف والمضاف إليه دالاً على التعظيم حصل من بينهما تعظيمٌ أبلغ.

أضيفت العين إلى اسم الجمع ظاهرا أو مضمرا فالأحسن جمعها مشاكلة للفظ كقوله ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر: ١٤] وقوله: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [هود: ٣٧]. ("الصواعق المرسلة"/ ١/ ص٢٥٥).

[١٠٥] **الحديث ضعيف**. أخرجه العقيلي في "الضعفاء الكبير" برقم (١١٩) في ترجمة إبراهيم بن يزيد الخوزي، وهو مكي متروك، كما في ترجمته.

الباب الثامنَ عشَرَ: في كلام الله - سبحانه وتعالى -

اتفق أهل السنة والجماعة على أن الله يتكلم، وأن كلامَه صفة حقيقية ثابتةٌ له على الوجه اللائق به. وهو سبحانه يتكلم بحرف وصوت، كيف شاء متى شاء. فكلامه صفةُ ذاتٍ باعتبار جنسه، وصفةُ فعلٍ باعتبار آحاده. وقد دل على هذا القول الكتاب والسنة.

فمن أدلة الكتاب قوله تعالى: ﴿ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه﴾، وقولُه: ﴿إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إليّ﴾، وقولُه: ﴿وناديناه من جانب الطور الأيمنِ وقربناه نجيّاً﴾. ففي الآية الأولى إثبات أن الكلام يتعلق بمشيئته، وأنّ آحاده حادثة. وفي الآية الثانية دليل على أنه بحرف، فإن مَقُول القول فيها حروف. وفي الآية الثالثة دليل على أنه بصوت، إذ لا يُعقل النداءُ والمناجاة إلا بصوت.

ومن أدلة السنة قول النبي ﷺ: «يقول الله تعالى: يا آدم. فيقول: لبيك وسعديك. فينادي بصوت: إن الله يأمرك أن تُخْرِج من ذريتك بعثاً إلى النار»[١٠٦].

وكلامه سبحانه هو اللفظُ والمعنى جميعاً، ليس هو اللفظَ وحدَه أو المعنى وحدَه. هذا هو قول أهل السنة والجماعة في كلام الله تعالى.

---

[١٠٦] أخرجه البخاري (٤٧٤١) ومسلم (٢٢٢) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، واللفظ للبخاري.

وأما أقوال غيرهم فإليك ملخصَها من مختصر "الصواعق المرسلة": الأول: قول الكَرَّامية. وهو كقول أهل السنة، إلا أنهم قالوا: إنه حادث بعد أن لم يكن، فِراراً من إثبات حوادثَ لا أولَ لها.

الثاني: قول الكُلابِيَّة أنه معنىً قائمٌ بذاته، لازمٌ لها كلزوم الحياة والعلم فلا يتعلق بمشيئته، والحروف والأصوات حكاية عنه خلقها الله تعالى لتدلّ على ذلك المعنى القائمِ بذاته، وهو أربعةُ معانٍ أمر ونهي وخبر واستخبار.

الثالث: قول الأشعرية. وهو كقول الكُلابية، إلا أنهم يخالفونهم في شيئين:

أحدهما: في معاني الكلام. فالكُلابية يقولون إنه أربعة معانٍ. والأشعرية يقولون إنه معنىً واحدٌ، فالخبر والاستخبار والأمر والنهي كلّ واحد منها هو عين الآخر، وليست أنواعاً للكلام بل صفاتٍ له، بل التوراة والإنجيل والقرآن كلّ واحد منها عينُ الآخر لا تختلف إلا بالعبارة.

الثاني: أن الكُلابية قالوا إن الحروفَ والأصواتِ حكاية عن كلام الله. وأما الأشعرية فقالوا إنها عبارة عن كلام الله.

الرابع: قول السالِمِيّة أنه صفةٌ قائمة بذاته، لازمة لها كلزوم الحياة والعلم فلا يتعلق بمشيئته، وهو حروف وأصوات متقارنة لا يسبق بعضُها بعضاً، فالباء والسين والميم في البسملة مثلاً كلُّ حرف منها مقارن للآخر في آنٍ واحد، ومع ذلك لم تزل ولا تزال موجودةً.

الخامس: قول الجهمية والمعتزلة إنه مخلوق من المخلوقات وليس من صفات الله.

ثم من الجهمية من صرح بنفي الكلام عن الله، ومنهم من أقر به وقال إنه مخلوق.

السادس: قول فلاسفة المتأخرين - أتباعِ أَرِسْطو – أنه فيض من العقل الفعّال على النفوس الفاضلة الزكية بحسب استعدادها وقَبولها، فيوجب لها تصوراتٍ وتصديقاتٍ بحسب ما قبلته منه، وهذه التصوراتُ والتصديقات الُمتخيَّلةُ تَقْوَى حتى تُصوِّرَ الشيءَ المعقولَ صوراً نُورانيةً تخاطبها بكلام تسمعه الآذان.

السابع: قول الاتحادية - القائلين بوحدة الوجود - أن كل كلام في الوجود كلام الله، كما قال قائلهم: (وكل كلام في الوجود كلامه، ... سواء علينا نثره ونِظامه).

وكل هذه الأقوال مخالفة لما دل عليه الكتاب والسنة والعقل. ومن رزقه الله علماً وحكمة فَهِم ذلك.

فصل: في أن القرآنَ كلامُ الله

مذهب أهل السنة والجماعة أن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود، تكلم به حقيقةً وألقاه إلى جبريل فنزل به على قلب محمد ﷺ . وقد دل على هذا القول الكتاب والسنة.

فمن أدلة الكتاب قوله تعالى: ﴿وإنْ أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله﴾ يعني القرآنَ، وقولُه: ﴿كتاب أنزلناه إليك﴾، ﴿نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين. بلسان عربي مبين﴾[١٠٧].

---

[١٠٧] قال العلامة أبو الحسن الأشعري -رحمه الله-: فإن قال قائل: حدثونا، أتقولون: إن كلام الله في اللوح المحفوظ؟ قيل له: كذلك نقول؛ لأن الله تعالى قال: ﴿**بل هو قرآن مجيد * في لوح محفوظ**﴾، فالقرآن في اللوح المحفوظ. وهو في صدور الذين أوتوا العلم، قال الله تعالى: ﴿**بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم**﴾. وهو متلو بالألسنة، قال الله تبارك وتعالى: ﴿**لا تحرك به لسانك لتعجل به**﴾. والقرآن مكتوب في مصاحفنا في الحقيقة، محفوظ في صدورنا في الحقيقة، متلو بألسنتنا في الحقيقة، مسموع لنا في الحقيقة، كما قال تعالى: ﴿**فأَجِرْه حتى يسمع كلام الله**﴾. ("الإبانة عن أصول الديانة" / ص١٠٠-١٠١).

وقال الإمام ابن شاهين -رحمه الله-: وأشهد أن القرآن الذي أنزله على نبيه كلامه غير مخلوق، على كل وجه وكل حال، لا يداخلني في ذلك شك ولا ريب. ("شرح مذاهب أهل السنة" / لابن شاهين / ص ٣٢٢).

ومن أدلة السنة قوله ﷺ وهو يعرض نفسه على الناس في الموقف[١٠٨]: «ألا رجل يحملني إلى قومه لأبلغ كلام ربي، فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ كلام ربي -عزّ وجلّ- »،

وقولُه ﷺ للبراء ابن عازب: «إذا أويتَ إلى فراشك فقل: اللهم أسلمت نفسي إليك ووجهت وجهي إليك وفوضت أمري إليك وألجأت ظهري إليك، رغبة ورهبة إليك، لا ملجأَ ولا منجى منك إلا إليك، آمنت بكتابك الذي أنزلت وبنبيك الذي أرسلت»[١٠٩].

وقال عمرو بن دينار: (أدركت الناس منذ سبعين سنةً يقولون: الله الخالق وما سواه مخلوق، إلا القرآنُ فإنه كلام الله غير مخلوق منه بدأ وإليه يعود) [١١٠] انتهى.

ومعنى قولهم: (منه بدأ) أن الله تكلم به ابتداءً، وفيه رد على الجهمية القائلين بأنه خلقه في غيره. وأما قولهم: (وإليه يعود) فيحتمل معنيين:

أحدهما: أنه تعود صفة الكلام بالقرآن إليه، بمعنى أنّ أحداً لا يوصف بأنه تكلم به غيرَ الله، لأنه هو المتكلم به والكلام صفة للمتكلم.

---

[١٠٨] عن جابر رضي الله عنه، أخرجه البخاري في "خلق أفعال العباد" برقم (٦)، والترمذي (٤٧٣٦)، وأبو داود (٤٧٣٤) صححه الإمام الوادعي رحمه الله في "الجامع الصحيح" (رقم (٢٤١٣)/ دار الآثار).

[١٠٩] عن البراء رضي الله عنه، أخرجه البخاري (٢٤٧) ومسلم (٢٧١٠).

[١١٠] أخرجه والدارمي في "النقض على المريسي" (٢/ ص٦٩٣)، من طريقه البيهقي في "الكبرى" (١٩٦٨٩) بسند صحيح.

الثاني: أنه يُرفع إلى الله تعالى، كما جاء في بعض الآثار أنه يُسرى به من المصاحف والصدور، وذلك إنما يقع - والله أعلم - حين يُعرِض الناس عن العمل بالقرآن إعراضاً كلياً، فيرفع عنهم تكريماً له. والله المستعان.

فصل: في اللفظ والملفوظ

الكلام في هذا الفصل يتعلق بالقرآن. فإنه قد سبق أن القرآن كلام الله غير مخلوق. لكن اللَّفظ بالقرآن هل يصح أن نقول إنه مخلوق أو غير مخلوق؟ أو يجب السكوت؟

فالجواب أن يقال: إن إطلاق القول في هذا نفياً أو إثباتاً غير صحيح[١١١]. وأما عند التفصيل فيقال: إن أريد باللفظِ التَّلفظُ - الذي هو فعل العبد - فهو مخلوق لأن العبد

---

[١١١] قال الشيخ في الشرح: ولهذا ورد عن الإمام أحمد رحمه الله أنه قال: (من قال لفظي بالقرآن مخلوق فهو جهمي، ومن قال غير مخلوق فهو مبتدع) .. فأنت الآن إن أطلقت (مخلوق) فرح بك الجهمية والمعتزلة، وإن أطلقت (غير مخلوق) فرح بك القدرية. إذاً لا تطلق. أفادنا المؤلف أن (اللفظ) مصدر. والمصدر يصح أن يراد به الفعل اللي هو معنى المصدر، ويصح أن يراد به المفعول الناتج عن المصدر، انتهى.

وفعلَه مخلوقان، وإن أريد باللفظ الملفوظُ به فهو كلام الله غير مخلوق لأن كلام الله من صفاته، وصفاته غير مخلوقة[١١٢].

---

[١١٢] قال إسماعيل بن الحسن السراج: سألت أحمد عمن يقول: القرآن مخلوق، قال: كافر، وعمن يقول: لفظي بالقرآن مخلوق، فقال: جهمي. ("سير أعلام النبلاء" / ١١/ ص ٢٨٨).

وقال المروذي: ولما أظهر يعقوب بن شيبة الوقف، حذر عنه أبو عبد الله، وأمر بهجرانه.

لأبي عبد الله في مسألة اللفظ نُقول عدة: فأول من أظهر مسألة اللفظ حسين بن علي الكرابيسي، وكان من أوعية العلم، ووضع كتابا في المدلسين، يحط على جماعة فيه أن ابن الزبير من الخوارج. وفيه أحاديث يقوي به الرافضة. فأُعلم أحمد، فحذر منه، فبلغ الكرابيسي، فتنمر، وقال: لأقولنّ مقالة حتى يقول ابن حنبل بخلافها فيكفر. فقال: (لفظي بالقرآن مخلوق).

فقال المروذي في كتاب " القصص ": فذكرت ذلك لأبي عبد الله أن الكرابيسي، قال: (لفظي بالقرآن مخلوق)، وأنه قال: (أقول: إن القرآن كلام الله غير مخلوق من كل الجهات إلا أن لفظي به مخلوق. ومن لم يقل: لفظي بالقرآن مخلوق، فهو كافر). فقال أبو عبد الله: بل هو الكافر، قاتله الله، وأي شيء قالت الجهمية إلا هذا؟ وما ينفعه، وقد نقض كلامه الأخير كلامه الأول؟! ثم قال: أيش خبر أبي ثور، أوافقه على هذا ؟ قلت: قد هجره. قال: أحسن، لن يفلح أصحاب الكلام.

(انتهى النقول من "سير أعلام النبلاء" / ١١/ ص ٢٨٩).

إن القراءة والتلاوة والتلفظ من أفعال العباد، وهي مخلوقة.

فبعد أن ذكر أدلة كثيرة على أن أفعال العباد مخلوقة قال الإمام البخاري رحمه الله: فبين النبي ﷺ أن أصوات الخلق وقراءاتهم ودراستهم وتعليمهم وألسنتهم مختلفة بعضها أحسن وأزين وأحلى، وأصوت ، وأرتل ، وألحن ، وأعلى ، وأخف ، وأغض ، وأخشع ، وقال : ﴿**وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً**﴾، وأجهر ، وأخفى ، وأمهر ، وأمد ، وألين ، وأخفض من بعض. ("خلق أفعال العباد" / للبخاري / ص ١٢٤).

وأما الملفوظ والمقروء والمتلو هو القرآن وهو كلام الله غير مخلوق.

قال الإمام البخاري رحمه الله: فأما المتلو فقول الله الذي: ﴿**ليس كمثله شيء وهو السميع البصير**﴾، وقال: ﴿**هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق**﴾. وقال عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ، عن النبي ﷺ : «**يمثل القرآن يوم القيامة رجلا فيشفع لصاحبه**»، حدثنيه زهير بن حرب ، حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا أبي ، عن ابن إسحاق ، حدثني عمرو بن شعيب بن محمد بن عبد الله بن عمرو ، عن أبيه ، عن جده، سمعت النبي ﷺ بهذا. قال أبو عبد الله: وهو اكتسابه وفعله، قال الله: ﴿**فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره**﴾. وقال جرير بن حازم، عن الحسن، عن صعصعة، عم الفرزدق: أتيت النبي ﷺ فسمعته يقرأ: ﴿**فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره**﴾، فقلت: حسبي قد علمت فيم الخير وفيم الشر. وقال ابن مسعود: (إنا إذا حدثناكم أتيناكم بتصديق ذلك من كتاب الله). وقد دخل في ذلك قراءة القرآن وغيرها ، وقد بين الله قولاً ذلك

ويشير إلى هذا التفصيل قول الإمامِ أحمدَ رحمه الله: (من قال لفظي بالقرآن مخلوق، يريد به القرآنَ، فهو جهمي. فقوله: (يريد به القرآنَ) يدل على أنه إن أراد به غيرَ القرآن – وهو التلفظ، الذي هو فعل الإنسان – فليس بجهمي. والله أعلم.

للمخلوقين حين قال: ﴿**الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً**﴾، فأخبر أن العمل من الحياة، ثم بين خلقه فقال: ﴿**وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير**﴾، مع أن الجهمية والمعطلة إنما ينازعون أهل العلم على قول الله : إن الله لا يتكلم، وإن تكلم فكلامه خلق ، فقالوا : إن القرآن المقروء بعلم الله مخلوق ، فلم يميزوا بين تلاوة العبادة وبين المقروء.

(انتهى من "خلق أفعال العباد" / للبخاري / ص ١٢٨-١٢٩).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: وأما البخاري وأمثاله فإن هؤلاء من أعرف الناس بقول أحمد بن حنبل وغيره من أئمة السنة. ("مجموع الفتاوى" / ٧/ ص ٦٥٩).

الباب التاسعَ عشَرَ: في ظهور مقالة التعطيل واستمدادها

شاعت مقالةُ التعطيل بعدَ القرون المفضلةِ -الصحابةِ والتابعين وتابعيهم- وإن كان أصلُها قد نبغ في أواخرِ عصر التابعين.

وأولُ من تكلم بالتعطيل الجَعْدُ بنُ دِرْهَمٍ، فقال: (إن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً، ولم يكلم موسى تكليماً)، فقتله خالدُ بنُ عبد الله القَسْرِيُّ الذي كان والياً على العراق لهشامِ بنِ عبد الملك. خرج به إلى مُصَلى العيد بوِثاقه ثم خطب الناس وقال: (أيها الناس ضحوا تقبل الله ضحاياكم، فإني مضحٍ بالجعد بن درهم، إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً ولم يكلم موسى تكليماً) ثم نزل وذبحه، وذلك في عيد الأضحى سنة ١١٩ هـ.

وفي ذلك يقول ابنُ القيم رحمه الله في النونية: (ولأجل ذا ضحى بجعدٍ خالدُ الـ، قسريُّ يومَ ذبائحِ القُربانِ، إذ قال: إبراهيمُ ليس خليلَه، كلا ولا موسى الكليمَ الداني، شَكَرَ الضحيةَ كلُّ صاحب سنةٍ، لله درُّكَ مِن أخي قُربانِ).

ثم أخذها عن الجعدِ رجلٌ يُقال له الجهمُ بنُ صَفْوانَ. وهو الذي يُنسب إليه مذهبُ الجهمية المعطلةِ لأنه نشره، فقتله سلَمُ بنُ أَحْوَزَ صاحبُ شرطة نصرِ بنِ سَيَّارٍ، وذلك في خراسانَ سنةَ ١٢٨ هـ.

وفي حدود المِائَةِ الثانيةِ عُرِّبت الكتب اليونانيةُ والرومانيةُ، فازداد الأمر بلاء وشدة.

ثم في حدود المِائَةِ الثالثة انتشرت مقالةُ الجهمية بسبب بِشرِ بنِ غِياثٍ المِرِيسِيِّ وطبقتِه، الذين أجمع الأئمةُ على ذمِّهم، وأكثرُهم كفّروهم أو ضلَّلُوهم. وصنف عثمانُ بنُ سعيدٍ الدارميُّ رحمه الله كتاباً رد به على المريسي سماه "نقضُ عثمانَ بنِ سعيد، على الكافرِ العنيد، فيما افترى على الله من التوحيد"[١١٣].

من طالع هذا الكتابَ بعلم وعدل تبين له ضعفُ حجة هؤلاء المعطلة بل بطلانُها، وأن هذه التأويلاتِ التي توجد في كلام كثير من المتأخرين - كالرازي والغزالي وابنِ عقيل وغيرهم - هي بعينها تأويلاتُ بِشْر.

وأما استمداد مقالة التعطيل، فكان من اليهود والمشركين وضُلال الصابئين والفلاسفة، فإن الجعدَ بنَ درهمٍ أخذ مقالته - على ما قيل - من أَبَانَ بنِ سَمْعانَ عن طالوتَ عن لَبِيدِ بنِ الأعصم اليهوديِّ الذي سحر النبيَّ ﷺ. ثم إن الجعد كان - على ما قيل - من أرضِ حَرَّانَ، وفيها خلق كثير من الصابئة والفلاسفة، ولا ريبَ أن للبيئة تأثيراً قوياً في عقيدة الإنسان وأخلاقه. وكان مذهب النفاة من هؤلاءِ أن الله ليس له صفاتٌ ثبوتيةٌ، لأن

---

[١١٣] قال الإمام الحافظ عثمان بن سعيد الدارمي -رحمه الله-: فمن أجل ذلك كرهنا الخوض فيه وإذاعة نقائصه حتى أذاعها المعارض فيكم وبثها بين أظهركم فخشينا ألا يسعنا إلا الإنكار على من بثّها ودعا الناس إليها منافحة عن الله وتثبيتاً لصفاته العلى ولأسمائه الحسنى ودعا إلى الطريقة المثلى ومحاماة عن ضعفاء الناس وأهل الغفلة من النساء والصبيان أن يضلوا بها، ويفتتنوا إذ بثّها فيهم رجل كان يشير بعضهم بشيء من فقه وبصر، ولا يفطنون لعثراته إذ هو عثر فيكونوا من أخواتها منه على حذر. ("نقض عثمان بن سعيد الدارمي على المريسي الجهمي العنيد"/ ص٤-٥/ ط. أضواء السلف).

ثبوتَ الصفات يقتضي -على زعمهم- أن الله مشابهٌ لخلقه. وإنما يثبتون له صفاتٍ سلبيةً أو إضافيةً أو مركبةً منهما.

فالصفات السلبية ما كان مدلولُها عدم أمر لا يليق بالله عز وجل. مثلُ قولهم: (إن الله واحد، بمعنى أنه مسلوب عنه القِسْمَةُ بالكم أو القول، ومسلوبٌ عنه الشريك).

أما الإضافية فهي التي لا يوصف الله بها على أنها صفة ثابتة له، ولكن يوصف بها باعتبار إضافتها إلى الغير. كقولهم عن الله تعالى إنه مبدأ وعلة، فهو مبدأ وعلة باعتبار أن الأشياء صدرت منه، لا باعتبار صفة ثابتةٍ له هي البَداءَة والعِلِّيَّة.

أما المركبة منهما فهي التي تكون سلبية باعتبار وإضافية باعتبار. كقولهم عن الله تعالى إنه أوّلٌ، فهي سلبية باعتبار أنه مسلوب عنه الحدوثُ، إضافية باعتبار أن الأشياء بعده.

فإذا كان هذا هو ما تُستمد منه طريقةُ النفاة، فكيف تطيب نفس مؤمن أو عاقل أن يأخذَ به ويتركَ سبيلَ الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين؟

الباب العشرون: في طريقة النفاة فيما يجب إثباته أو نفيه من صفات الله

اتفق النفاة على أن يثبتوا لله من الصفات ما اقتضت عقولُهم إثباتَه، وأن ينفُوا عنه ما اقتضت عقولُهم نفيَه، سواءٌ وافق الكتاب والسنة أم خالفها. فطريق إثبات الصفات لله أو نفيها عنه عندَهم هو العقل. ثم اختلفوا فيما لا يقتضي العقلُ إثباتَه أو نفيَه، فأكثرهم نفَوْه وخَرَّجوا ما جاء منه على المجاز[١١٤]، وبعضهم توقف فيه وفوّض علمَه إلى الله مع نفيِ دلالتِه على شيء من الصفات.

---

[١١٤] مؤدى كلام أهل المجاز أن كلام الله تعالى غير موثوق لأن ألفاظه تحتاج إلى تصليح وتأويل، مع أن الله جل ذكره قال: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢]. وقد ردّ عليهم وعلى من تشبّه بهم الإمامُ ابن القيم رحمه الله بهذه الآية، ثم قال: وهل هذا الإفك المفترى إلا رافع للوثوق بأخباره ووعده ووعيده وتجويزه عليه وعلى كلامه ما هو أقبح القبائح التي تنزه عنها بعض عبيده ولا يليق به فضلاً عنه سبحانه. ("مفتاح دار السعادة"/ ٢/ ص٧٥).

وهم يزعمون أنهم وَفَّقُوا بهذه الطريقةِ بين الأدلةِ العقليةِ والنقليةِ. ولكنهم كذبوا في ذلك. لأن الأدلة العقليةَ والنقليةَ متفقةٌ على إثبات صفاتِ الكمال لله. وكل ما جاء في الكتاب والسنة من صفات الله فإنه لا يخالف العقل، وإن كان العقل يعجز عن إدراك التفصيل في ذلك.

وقد شابه هؤلاءِ النفاةُ في طريقتهم طريقةَ من قال الله فيهم: ﴿ألم ترَ إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلّهم ضلالاً بعيداً * وإذا قيل لهم تعالَوْا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً * فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً﴾[١١٥].

---

[١١٥] قال الإمام السعدي –رحمه الله–: يعجب تعالى عباده من حالة المنافقين. ﴿الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ﴾ مؤمنون بما جاء به الرسول وبما قبله، ومع هذا ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾ وهو كل من حكم بغير شرع الله فهو طاغوت. والحال أنهم ﴿قد أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾ فكيف يجتمع هذا والإيمان؟ فإن الإيمان يقتضي الانقياد لشرع الله وتحكيمه في كل أمر من الأمور، فمَنْ زعم أنه مؤمن واختار حكم الطاغوت على حكم الله، فهو كاذب في ذلك. وهذا من إضلال الشيطان إياهم، ولهذا قال: ﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلالا بَعِيدًا﴾ عن الحق. ﴿فَكَيْفَ﴾ يكون حال هؤلاء الضالين ﴿إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من المعاصي ومنها تحكيم الطاغوت؟! ﴿ثُمَّ جَاءُوكَ﴾ معتذرين لما صدر منهم، ويقولون: ﴿إِنْ أَرَدْنَا إِلا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ أي: ما قصدنا في ذلك إلا الإحسان إلى المتخاصمين والتوفيق بينهم، وهم كَذَبة في ذلك. فإن الإحسان كل الإحسان تحكيم الله ورسوله ﴿وَمَنْ أحْسَن من الله حكمًا لقوْمٍ يوقنون﴾. ("تيسير الكريم الرحمن"/ ص١٨٤).

ووجهُ مشابهتهم لهم من وجوه:

الأول: أن كل واحد من الفريقين يزعم أنه مؤمن بما أنزل على النبي ﷺ مع أنهم لا يقبلون كلَّ ما جاء به.

الثاني: أن هؤلاءِ النفاةَ إذا دُعوا إلى ما جاء به الكتاب والسنة من إثبات صفات الكمال لله تعالى أعرضوا وامتنعوا، كما أن أولئك المنافقين إذا قيل لهم تعالَوْا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول صدوا وأعرضوا.

الثالث: أن هؤلاء النفاةَ لهم طواغيتُ يقلدونهم ويقدمونهم على ما جاءت به الرسل ويريدون أن يكون التحاكمُ عند النزاع إليهم لا إلى الكتاب والسنة، كما أن أولئك المنافقين يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به.

الرابع: أن هؤلاء النفاةَ زعموا أنهم أرادوا بطريقتهم هذه عملاً حسناً وتوفيقاً بين العقل والسمع، كما أن أولئك المنافقين يحلفون أنهم ما أرادوا إلا إحساناً وتوفيقاً.

وكلُّ مبطل -يتستر في باطله ويتظاهر بالحق- فإنه يأتي بالدعاوَى الباطلةِ التي يروّج بها باطلَه. ولكن من وهبه الله علماً وفهماً وحكمة وحسن قصد، فإنه لا يلتبس عليه الباطلُ ولا تَرُوج عليه الدعاوى الكاذبةُ، والله المستعان(١١٦).

---

(١١٦) إن أهل التلبيسات على قسمين: **الأول**: أصحاب الفهم السيء الذين يعملون بلا علم فضلّوا الطريق، فهم النصارى ومن شابههم. **والقسم الثاني**: أصحاب القصد السيء الذين عاند الهدى بعد معرفته فغضب الله عليهم ولعنهم وختم على قلوبهم فلا يؤمنون إلا قليلا، فهم اليهود ومن شابههم. فلا يسلم من تلبيساتهم ولا يكشف شبهاتهم إلا أهل الفرقان الذين قال الله تعالى لهم: **﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا الله يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَالله ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾** [الأنفال: ٢٩]. فهم الذين جمعوا بين حسن الفهم -بالعلم النافع- وحسن القصد -بالعمل الصالح- على الصراط المستقيم. فإذا كان كذلك فمن أجلّ نعمة الله على عباده **حسن الفهم وحسن القصد**.

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: ... من أعظم نعم الله التي أنعم بها على عبده بل ما أعطي عبد عطاء بعد الإسلام أفضل ولا أجلّ منهما، بل هما ساقا الإسلام وقيامه عليهما، وبهما يأمن العبد طريق المغضوب عليهم الذين **فسد قصدهم**، وطريق الضالين الذين **فسدت فهومهم**، ويصير من المنعم عليهم الذين **حسنت أفهامهم وقصودهم**، وهم أهل الصراط المستقيم الذين أمرنا أن نسأل الله أن يهدينا صراطهم في كل صلاة. **وصحة الفهم** نور يقذفه الله في قلب العبد يميز به بين الصحيح والفاسد والحق

فصل: فيما يلزم على طريقة النفاة من اللوازم الباطلة

يلزم على طريقة النفاة لوازمُ باطلةٌ، منها:

أولاً: أن الكتاب والسنة صرحا بالكفر والدعوة إليه لأنهما مملوءان من إثبات صفات الله التي زعم هؤلاء النفاة أن إثباتها تمثيل وكفر.

ثانياً: أن الكتاب والسنة لم يبينا الحق، لأن الحق عند هؤلاء هو نفي الصفات، وليس في الكتاب ولا في السنة ما يدل على نفي صفات الكمال عن الله تعالى لا نصاً ولا ظاهراً. وغاية المتحذلق من هؤلاء أن يستنتج ذلك من مثل قوله تعالى: ﴿هل تعلم له سمياً﴾، ﴿ولم يكن له كفواً أحد﴾(١١٧)،

والباطل والهدى والضلال والغي والرشاد. ويمدّه **حسن القصد** وتحري الحق وتقوى الرب في السر والعلانية. ("إعلام الموقعين"/ تمكّن الحاكم والمفتي/ ١/ ص ٧٧).

(١١٧) بل هذه الآية تدل على كثرة صفات الكمال ونعوت الجلال لله تعالى. قوله تعالى: **﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾** [الإخلاص: ٤] سُبق بذكر عدد من الصفات، فهذا يدل على أن الله تعالى من كثرة أوصافه الجميلة لا أحد من المخلوقين يكافئه. ثم إن سياق الآية سياق التمدح، فلو كان المراد أن الله تعالى ليس

﴿ليس كمثله شيء﴾، ﴿لا تجعلوا لله أنداداً﴾.

ومن المعلوم لكل عاقل أنّ المقصودَ من أمثال هذه النصوص إثباتُ كمال الله تعالى، وأنه -سبحانه وتعالى- لكماله لا شبيهَ له في صفاته. ولا يمكن أن يراد بها بيان انتفاءُ الصفات عنه. إذ لا ريبَ أن من دلّ الناس على انتفاء الصفات عن الله تعالى بمثل هذا الكلام

له أي وصف الكمال لما صار ممدوحاً لأن فاقد الكمالات أنقص من صاحب الكمال، وقد يكافئه العدم، فلا يستحق المدح.

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: فإن الصمد من تصمد نحوه القلوب بالرغبة والرهبة، وذلك لكثرة خصال الخير فيه وكثرة الأوصاف الحميدة له. ولهذا قال جمهور السلف منهم عبدالله بن عباس: الصمد السيد الذي كمل سؤدده، فهو العالم الذي كمل علمه، القادر الذي كملت قدرته، الحكيم الذي كمل حكمه، الرحيم الذي كملت رحمته، الجواد الذي كمل جوده. ومن قال: إنه الذي لا جوف له فقوله لا يناقض هذا التفسير فإن اللفظ من الاجتماع فهو الذي اجتمعت فيه صفات الكمال ولا جوف له.

فإنما لم يكن أحد كفواً له لما كان صمداً كاملاً في صمديته. فلو لم تكن صفات كمال ونعوت جلال ولم يكن له علم ولا قدرة ولا حياة ولا إرادة ولا كلام ولا وجه ولا يد ولا سمع ولا بصر ولا فعل يقوم به ولا يفعل شيئاً البتة ولا هو داخل العالم ولا خارجه ولا فوق عرشه ولا يرضى ولا يغضب ولا يحب ولا يبغض ولا هو فعال لما يريد ولا يرى ولا يمكن أن يرى ولا يشار إليه ولا يمكن أن يشار إليه: لكان العدم المحض كفواً، فإن هذه الصفات منطبقة على المعدوم. فلو كان ما يقوله المعطلون هو الحق لم يكن صمداً، وكان العدم كفواً له.

(انتهى من "الصواعق المرسلة" / ١/ ص٤٧٥-٤٧٦).

وهكذا الكلام في قوله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم:٦٥]، وكذلك في الآيتين اللتين بعدها.

فهو إما مُلْغِزٌ في كلامه أو مدلِّس أو عاجز عن البيان، وكل هذه الأمور ممتنعة في كلام الله وكلام رسوله ﷺ ، فإن كلامهما قد تضمن كمال البيان والإرادة، فليس المقصودُ به إرادةَ ضلال الخلق والتعميةَ عليهم، وليس فيه نقص في البيان والفصاحة.

ثالثاً: أن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصارِ والذين اتبعوهم بإحسان كانوا قائلين بالباطل وكاتمين للحق أو جاهلين به، فإنه قد تواتر النقل عنهم بإثبات صفات الكمال لله -الذي زعم هؤلاء أنه باطل- ولم يتكلموا مرة واحدة بنفي الصفات -الذي زعم هؤلاء أنه الحق-. وهذا اللازم مُمتنع على خير القرون وأفضل الأمة.

رابعاً: أنه إذا انتفت صفة الكمال عن الله لزم أن يكون متصفاً بصفات النقص، فإن كل موجود في الخارج لا بدَّ له من صفة، فإذا انتفت عنه صفات الكمال لزم أن يكون متصفاً بصفات النقص. وبهذا ينعكس الأمر على هؤلاء النفاةِ ويقعون في شر مما فروا منه.

فصل: فيما يعتمد عليه النفاة من الشبهات

يعتمد نفاة الصفات على شُبُهات باطلة يعرف بطلانَهَا كلُّ من رزقه الله علماً صحيحاً وفهماً سليماً. وغالب ما يعتمدون عليه ما يأتي:

١. دعوى كاذبةٌ. مثلُ أن يدّعيَ الإجماعَ على قوله أو أنه هو التحقيق أو أنه قول المحققين أو أن قول خصمه خلافُ الإجماع، ونحوُ ذلك.

٢. شبهةٌ مركَّبة من قياس فاسد. مثل قولهم: إثبات الصفات لله يستلزم التشبيه، لأن الصفاتِ أعراضٌ، والعرض لا يقوم إلا بجسم، والأجسام متماثلة.

٣. تَمَسُّك بألفاظ مشترَكة بين معانٍ يصح نسبتها إلى الله تعالى ومعانٍ لا يصح نسبتها إليه. مثلُ الجسم والحَيْز والجهة، فهذه الألفاظُ المجملة يتوصلون بإطلاق نفيها عن الله إلى نفي صفاته عنه.

ثم هم يصوغون هذه الشبهاتِ بعبارات مزخرفة طويلة غريبة يحسبها الجاهل بها حقّاً بما كُسِيَتْه من زخارفِ القول، فإذا حَقَّق الأمرَ تبيَّن له أنها شبهات باطلة، كما قيل: «حجج تَهافَتُ كالزجاج تخالها، حقاً وكلٌّ كاسرٌ مكسورٌ».

والرد على هؤلاءِ من وجوه:

الأولُ: نقضُ شبهاتهم وحججهم. وأنه يلزمهم فيما أثبتوه نظيرُ ما فَرُّوا منه فيما نَفَوْه.

الثاني: بيان تناقض أقوالهم واضطرابِها، حيث كانت كل طائفة منهم تدّعي أن العقل يوجب ما تدّعي الأخرى أنه يمنعه، ونحوُ ذلك. بل الواحد منهم رُبّما يقول قولاً يدعي أن العقل يوجبه، ثم ينقضه في محل آخر. وتناقض الأقوال من أقوى الأدلة على فسادها.

الثالث: بيان ما يلزم على نفيهم من اللوازم الباطلة، فإن فسادَ اللازم يدلّ على فساد الملزوم.

الرابع: أن النصوص الواردةَ في الصفات لا تحتمل التأويلَ. ولئن احتمله بعضُها، فليس فيه ما يمنع إرادةَ الظاهر فتعين المصيرُ إليه.

الخامس: أن عامةَ هذه الأمورِ -من الصفات- يُعلم بالضرورة من دين الإسلام أن الرسول ﷺ جاء بها، فتأويلها بمنزلة تأويل القَرَامِطَة والباطِنِيَّة للصلاة والصوم والحج ونحوِ ذلك.

السادس: أن العقل الصريحَ -أيْ السالِمَ من الشبهات والشهوات- لا يُحيل ما جاءت به النصوص من صفات الله، بل إنه يدل على ثبوت صفات الكمال لله في الجملة، وإن كان في النصوص من التفاصيل في هذا الباب ما تعجز العقول عن إدراكه والإحاطة به.

وقد اعترف الفحول من هؤلاء أنَّ العقل لا يمكنه الوصولُ إلى اليقين في عامة المطالب الإلهية. وعلى هذا، فالواجب تَلَقِّي ذلك من النُّبُوّات على ما هو عليه من غير تحريف. والله أعلم.

الباب الحادي والعشرون: في أن كل واحد من فريقَي التعطيل والتمثيل قد جمع بين التعطيل والتمثيل

المعطل: من نفى شيئاً من أسماء الله أو صفاته، كالجهمية والمعتزلة والأشعرية ونحوِهم. والممثل: من أثبت الصفاتِ لله مُمَثِّلاً له بخلقه، كمتقدِّمي الرافضة ونحوهم.

وحقيقة الأمر أن كلَّ معطلٍ ممثلٌ، وكلَّ ممثلٍ معطلٌ. أما المعطل فتعطيله ظاهر. وأما تمثيله فوجهه أنه إنما عطل لأنه اعتقد أن إثباتَ الصفات يستلزم التشبيه، فأخذ ينفي الصفاتِ فراراً من ذلك، فمثل أولاً وعطل ثانياً.

وأما الممثل فتمثيله ظاهر. وأما تعطيله فمن وجوه ثلاثة:

أحدها: أنه عطل نفسَ النص الذي أثبت به الصفةَ حيثُ صرفه عن مقتضى ما يدلّ عليه، فإن النصَّ دالٌّ على إثبات صفة تليق بالله، لا على مشابهة الله لخلقه.

الثاني: أنه إذا مثَّل الله بخلقه فقد عطل كل نصٍّ يدل على نفي مشابهته لخلقه، مثلَ قوله تعالى: ﴿ليس كمثله شيء﴾، ﴿ولم يكن له كفُواً أحدٌ﴾.

الثالث: أنه إذا مثَّل الله بخلقه فقد عطله عن كماله الواجبِ، حيثُ شبه الرب الكاملَ من جميع الوجوه بالمخلوق الناقص.

الباب الثاني والعشرون: في تحذير السلف عن علم الكلام

علم الكلام هو ما أحدثه المتكلمون في أصول الدين من إثبات العقائد بالطرق التي ابتكروها، وأعرضوا بها عما جاء في الكتاب والسنة به. وقد تنوعت عبارات السلف في التحذير عن الكلام وأهلِه لما يُفْضِي إليه من الشُبُهات والشكوك، حتى قال الإمام أحمدُ: (لا يفلح صاحب كلام أبداً) [١١٨]**. وقال الشافعي: (حُكمي في أهل الكلام أن يُضربوا بالجريد والنعال، ويطافَ بهم في العشائر والقبائل ويقالَ: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأقبل على علم الكلام)** [١١٩].

---

[١١٨] قال المروذي: سمعت أبا عبد الله –يعني: أحمد بن حنبل– يقول: من تعاطى الكلام لا يفلح ومن تعاطى الكلام لا يخلو من بدعة. ("طبقات الحنابلة" / ١/ ص ٦١).

[١١٩] **صحيح لغيره،** أخرجه أبو نعيم الأصفهاني رحمه الله في "حلية الأولياء" (٩/ ص ١١٦) والخطيب البغدادي رحمه الله في "شرف أصحاب الحديث" برقم (١٦١).

وهم مستحقون لما قاله الإمام الشافعي من وجهٍ، ليتوبوا إلى الله ويرتدعَ غيرهم عن اتباع مذهبهم. ولكن إذا نظرنا إليهم من وجهٍ آخرَ – وقد استولت عليهم الحيرة واستحوذ عليهم الشيطان – فإننا نرحمهم ونرقّ لهم[١٢٠].

فلنا فيهم نظران، نظرٌ من جهة الشرعِ نؤدبهم ونمنعهم به من نشر مذهبِهم، ونظرٌ من جهة القدَر نرحمهم ونسأل الله لهم العافية[١٢١]، ونحمد الله الذي عافانا من حالهم.

وأكثر من يُخاف عليهم الضلالُ هم الذين دخلوا في علم الكلام ولم يصلوا إلى غايته. ووجه ذلك أن من لم يدخل فيه فهو في عافية منه، ومن وصل إلى غايته فقد تبين له فساده ورجع إلى الكتاب والسنة، كما جرى لبعض كبرائهم[١٢٢]. فيبقى الخطر على من خرج عن الصراط المستقيم ولم يتبين له حقيقةُ الأمر.

---

[١٢٠] قال الشيخ في الشرح: لكن كلام الشيخ أطول من هذا. يقول: فإن هؤلاء أوتوا فهوماً وما أوتوا علوماً وأوتوا ذكاء وما أوتوا زكاء، وأوتوا سمعاً وأبصاراً وأفئدة ﴿**فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون**﴾. هذا كلام الشيخ في "الفتوى الحموية" في الأصل، وليتني نقلته – ولكنه فاتني – لأن فيه فائدة عظيمة.

[١٢١] قال الشيخ في الشرح: ولكن إذا اجتمع عندنا نظران نظر الشرع ونظر القدَر، نُغَلِّب جانب الشرع.

[١٢٢] قال الإمام ابن القيم رحمه الله: ولهذا لما وصل حذاقهم في طريقة النظر إلى آخرها ورأوا غوائلها وآفاتها ورأوها لا توصل إلى المطلوب الصحيح رجعوا إلى طريقة الوحي والآثار النبوية كما صرح به الرازي وابن أبي الحديد وأبو حامد وأبو المعالي وغيرهم واعترفوا في آخر الأمر أن الطرق كلها مسدودة إلا طريق الوحي والأثر. ("الصواعق المرسلة"/ ٢ / ص٧٤).

وقد نقل المؤلف رحمه الله في هذه الفتوى كثيراً من كلام من تكلم في هذا الباب من المتكلمين. وقال: (وإن كنا مستغنين بالكتاب والسنة وآثار السلف عن كل كلام. ولكن كثيراً من الناس قد صار منتسباً إلى بعض طوائفِ المتكلمين، ومُحسناً للظن بهم دونَ غيرهم، ومتوهماً أنهم حققوا في هذا الباب ما لم يحققه غيرهم، فلو أُتِي بكل آية ما تبعها حتى يُؤتَى بشيء من كلامهم). ثم قال: (وليس كلُّ من ذكرنا قولَه من المتكلمين وغيرِهم نقول بجميع ما يقوله في هذا وغيرِه، ولكنّ الحقَّ يُقبل من كلِّ من تكلم به). فبين رحمه الله أن الغرضَ من نقلِه بيانُ الحق من أيِّ إنسان، وإقامةُ الحجةِ على هؤلاء من كلام أئمتهم. والله أعلم.

الباب الثالث والعشرون: في أقسام المنحرفين عن الاستقامة في باب الإيمان بالله واليوم الآخر

طريقة النبي ﷺ وأصحابِه والتابعين لهم بإحسان على الصراط المستقيم علماً وعملاً - يعرف ذلك من تتبعها بعلم وعدل - فقد حققوا الإيمان بالله واليوم الآخر، وأقروا بأن ذلك حق على حقيقته، وهم في عملهم مخلصون لله متبعون لشرعه، فلا شركَ ولا ابتداعَ، ولا تحريفَ ولا تكذيبَ.

وأما المنحرفون عن طريقهم فهم ثلاث طوائف: أهل التخييل وأهل التأويل وأهل التجهيل.

فأما أهل التخييل فهم الفلاسفة والباطنية ومن سلك سبيلهم من المتكلمين وغيرهم. وحقيقة مذهبهم أن ما جاءت به الأنبياء مما يتعلق بالإيمان بالله واليوم الآخر أمثالٌ وتخييلاتٌ لا حقيقةَ لها في الواقع، وإنما المقصود بها انتفاع العامة وجمهورِ الناس. لأن الناس إذا قيل لهم إن لكم رباً عظيماً قادراً رحيماً قاهراً وأمامَكم يوماً عظيماً تبعثون فيه وتجازَوْن بأعمالكم ونحوُ ذلك، استقاموا على الطريقة المطلوبة منهم، وإن كان هذا لا حقيقة له على زعم هؤلاء.

ثم إن هؤلاء على قسمين، غلاةٌ وغيرُ غلاة. فأما الغلاة فيزعمون أن الأنبياء لا يعلمون حقائق هذه الأمور، وأن من المتفلسفة الإلهية ومَن يزعمونهم أولياءَ من يعلم هذه الحقائقَ. فزعموا أن من الفلاسفة من هو أعلم بالله واليوم الآخر من النبيين الذين هم أعلم الناس بذلك.

وأما غير الغلاة فيزعمون أن الأنبياء يعلمون حقائق هذه الأمور، ولكنهم ذكروا للناس أموراً تخييلية لا تطابق الحق لتقوم مصلحةُ الناس. فزعموا أن مصلحة العباد لا تقوم إلا بهذه الطريقة التي تتضمن كذب الأنبياء في أعظم الأمور وأهمها.

فالطائفة الأولى حكمت على الرسل بالجهل. والطائفة الثانية حكمت عليهم بالخيانة والكذب. هذا هو قول أهل التخييل فيما يتعلق بالإيمان بالله واليوم الآخر.

أما في الأعمال فمنهم من يجعلها حقائقَ يُؤمر بها كل أحد. ومنهم من يجعلها تخييلاتٍ ورموزاً يؤمر بها العامةُ دون الخاصة، فيؤولون الصلاةَ بمعرفة أسرارهم، والصيامَ بكتمانها، والحجَّ بالسفر إلى شيوخهم، ونحوَ ذلك، وهؤلاء هم الملاحدة من الإسماعيلية والباطنية ونحوِهم.

وفساد قول هؤلاء معلوم بضرورة الحس والعقل والشرع. فإننا نشاهد من الآيات الدالة على وجود الله وكمال صفاته ما لا يمكن حصره، (وفي كل شيء له آية، تدل على أنه واحد) [١٢٣]،

فإن هذه الحوادثَ المنتظمةَ لا يمكن أن تحدث إلا بمدبر حكيم قادر على كل شيء. والإيمان باليوم الآخر دلت عليه جميع الشرائع واقتضته حكمة الله البالغة، ولا ينكره إلا مكابر أو مجنون. وأهل التخييل لا يحتاجون في الرد عليهم إلى شيء كثير، لأن نفور الناس عنهم معلوم ظاهر. وأما أهل التأويل [١٢٤]

---

(١٢٣) في "التمثيل والمحاضرة" (ص: ٣) قال أبو العتاهية:

أيا عجباً كيف يعصى الإله * أم كيف يجحده الجاحد

ولله في كلّ تحريكةٍ * وتسكينةٍ أبداً شاهد

وفي كل شيءٍ له آيةٌ * تدل على أنه واحد.

(١٢٤) قال الشيخ في الشرح: في الحقيقة أنهم هم أهل التحريف ... لأن التأويل الذي يريدونه: صرف الكلام عن ظاهره إلى المعنى المخالف للظاهر. وهذا إذا لم يكن له دليل كان تحريفاً. وهذا هو الواقع في

فهم المتكلمون من الجهمية والمعتزلة وأتباعِهم[١٢٥].

وحقيقة مذهبهم أن ما جاء به النبي ﷺ من نصوص الصفات لم يُقصد به ظاهرُه، وإنما المقصود به معانٍ تخالفه يعلمها النبي ﷺ، لكنه تركها للناس يستنتجونها بعقولهم ثم يحاولون صرف ظواهر النصوص إليها، وغرضه بذلك امتحان عقولهم وكثرة الثواب بما يعانونه من محاولة صرف الكلام عن ظاهره وتنزيله على شواذ اللغة وغرائب الكلام.

وهؤلاء هم أكثر الناس اضطراباً وتناقضاً، لأنهم ليس لهم قدم ثابت فيما يمكن تأويله وما لا يمكن، ولا في تعيين المعنى المراد[١٢٦].

مذهبهم ... تيسمية أنفسهم بأهل التأويل من باب التزيين والتلطيف والتغرير، لأنه من المعلوم أنه لو سموا أنفسهم أهل التحريف ... لنفر الناس منهم.

[١٢٥] قال الشيخ في الشرح: وقولنا (وأتباعِهم) يشمل من اتبعهم اتباعاً كاملاً، ومن تبعهم اتباعاً جزئياً كالأشاعرة. فإن الأشاعرة بلا شك من أهل التأويل.

[١٢٦] كل من خالف الوحي وقع في التناقضات والاضطرابات، لأن الحق لا يتناقض ولا يضطرب ولا يختلف. قال الله تعالى: ﴿**إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ * يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ**﴾ [الذاريات: ٨- ٩].

ثم إن غالب ما يزعمونه من المعاني يُعلم من حال المتكلم وسياق كلامه أنه لم يرده في ذلك الخطاب المعين الذي أوّلوه.

قال الإمام ابن كثير -رحمه الله- في تفسير هذه الآية: أي: إنكم أيها المشركون المكذبون للرسل لفي قول مختلف مضطرب، لا يلتئم ولا يجتمع. ("تفسير القرآن العظيم" / ٧/ ص ٤١٥).

وقال الإمام الخطابي -رحمه الله- في شأن الفلاسفة: وقد يكون الخصمان على مقالتين مختلفتين كلتاهما باطلة ويكون الحق في ثالثة غيرهما. فمناقضة أحدهما صاحبه غير مصحح مذهبه وإن كان مفسداً به قول خصمه، لأنهما مجتمعان معاً في الخطأ مشتركان فيه كقول الشاعر فيهم:

حجج تهافت كالزجاج تخالها * حقاً وكل كاسر مكسور *

وإنما كان الأمر كذلك لأن واحداً من الفريقين لا يعتمد في مقالته التي ينصرها أصلاً صحيحاً، وإنما هو أوضاع وآراء تتكافأ وتتقابل، فيكثر المقال ويدوم الاختلاف ويقلّ الصواب. قال الله تعالى: ﴿**ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً**﴾ [النساء: ٨٢]، فأخبر سبحانه أن ما كثر فيه الاختلاف فإنه ليس من عنده، وهذا من أدلّ الدليل على أن مذاهب المتكلمين فاسدة لكثرة ما يوجد فيها من الاختلاف المفضي بهم إلى التكفير والتضليل.

(انتهى من "الغنية عن الكلام وأهله"/ للخطابي/ ص١١١-١١٢).

وقال شيخ الإسلام -رحمه الله- في علم الكلام: فإنه كلما ازداد اللبيب له تصوراً وتفهمًا ازداد علماً بفساده وتناقضه وبأن القوم من أجهل الناس بالله تعالى. ("الصفدية"/ ٢ / ص ٢٢٣).

وقال أيضاً شيخ الإسلام -رحمه الله-: فإن التناقض أول مقامات الفساد. ("مجموع الفتاوى" / ٦/ ص ٣٨٩).

وهؤلاء كانوا يتظاهرون بنصر السنة ويتسترون بالتنزيه، ولكن الله تعالى هتك أستارهم برد شبهاتهم ودحض حججهم، فلقد تصدى شيخ الإسلام وغيرُه للردّ عليهم أكثرَ من غيرهم، لأن الاغترار بهم أكثرُ من الاغترار بغيرهم لما يتظاهرون به من نصر السنة.

فصلٌ

مذهب أهل التأويل في نصوص المَعاد الإيمانُ بها على حقيقتها من غير تأويل. ولما كان مذهبُهم في نصوص الصفات صرفَها عن حقائقها إلى معانٍ مجازية تخالف ظاهرها، استطال عليهم أهل التخييل فألزموهم القولَ بتأويل نصوص المَعاد كما فعلوا في نصوص الصفات. فقال لهم أهل التأويل: نحن نعلم بالاضطرار أن الرسول ﷺ جاء بإثبات المعاد، وقد علمنا فساد الشبهة المانعة منه، فلزم القولُ بثبوته.

وهذا جواب صحيح وحجة قاطعة تتضمن الدفاعَ عنهم في عدم تأويلهم نصوص المعاد، وإلزامَهم أهلَ التخييل أن يقولوا بإثبات المَعاد وإجراءِ نصوصه على حقائقها، لأنه إذا قام الدليل وانتفى المانع وجب ثبوت المدلول.

وقد احتج أهل السنة على أهل التأويل بهذه الحجة نفسِها ليقولوا بثبوت الصفات وإجراء نصوصها على حقيقتها، فقالوا لأهل التأويل: نحن نعلم بالاضطرار أن الرسول ﷺ جاء بإثبات الصفات لله، وقد علمنا فساد الشبهة المانعة منه، فلزم القول بثبوتها. وهذا إلزام صحيح وحجة قائمة لا محيدَ لأهل التأويل عنها، فإن من منع صرف الكلام عن حقيقته في نصوص المعاد يلزمه أن يمنعه في نصوص الصفات، التي هي أعظمُ وأكثر إثباتاً في الكتب الإلهية من إثبات المعاد. وإن لم يفعل فقد تبين تناقضه وفساد عقله.

فصلٌ

وأما أهل التجهيل(١٢٧) فهم كثير من المنتسبين إلى السنة واتباع السلف. وحقيقة مذهبِهم أن ما جاء به النبي ﷺ من نصوص الصفات ألفاظ مجهولة لا يُعرف معناها، حتى النبيُّ ﷺ يتكلم بأحاديث الصفات ولا يعرف معناها. ثم هم مع ذلك يقولون: ليس للعقل مَدخل في باب الصفات. فيلزم على قولهم أن لا يكون عند النبي ﷺ وأصحابه وأئمة السلف في هذا الباب علومٌ عقليةٌ ولا سمعيةٌ، وهذا من أبطل الأقوال(١٢٨).

---

(١٢٧) قال الشيخ في الشرح: ويسمون أنفسهم تلبيساً وتزويراً بـ(أهل التفويض) بأهل التفويض. لأنه معلوم إذا قال هذا مفوض أهون من إذا قيل هذا مجهل. إذا قيل هذا مجهل يجهل الرسول ووأصحابه مو بمثل الذي يقول هذا مفوض يفوض العلم إلى الله.

(١٢٨) قال شيخ الإسلام رحمه الله: وأما على قول أكابرهم : إن معاني هذه النصوص المشكلة المتشابهة لا يعلمه إلا الله وأن معناها الذي أراده الله بها هو ما يوجب صرفها عن ظواهرها، فعلى قول هؤلاء: يكون الأنبياء والمرسلون لا يعلمون معاني ما أنزل الله عليهم من هذه النصوص ولا الملائكة ولا السابقون الأولون. وحينئذ فيكون ما وصف الله به نفسه في القرآن أو كثير مما وصف الله به نفسه لا

يعلم الأنبياء معناه، بل يقولون كلاماً لا يعقلون معناه. وكذلك نصوص المثبتين للقدر عند طائفة والنصوص المثبتة للأمر والنهي والوعد والوعيد عند طائفة والنصوص المثبتة للمعاد عند طائفة.

ومعلوم أن هذا قدح في القرآن والأنبياء إذ كان الله أنزل القرآن وأخبر أنه جعله هدي وبياناً للناس، وأمر الرسول أن يبلغ البلاغ المبين، وأن يبين للناس ما نزل إليهم، وأمر بتدبر القرآن وعقله، ومع هذا فأشرف ما فيه، وهو ما أخبر به الرب عن صفاته أو عن كونه خالقاً لكل شيء، وهو بكل شيء عليم، أو عن كونه أمر ونهي ووعد وتوعد، أو عما أخبر به عن اليوم الآخر: لا يعلم أحد معناه، فلا يعقل ولا يتدبر، ولا يكون الرسول بيّن للناس ما نزل إليهم، ولا بلغ البلاغ المبين.

وعلى هذا التقدير فيقول كل ملحد ومبتدع : الحق في نفس الأمر ما علمته برأيي وعقلي وليس في النصوص ما يناقض ذلك لأن تلك النصوص مشكلة متشابهة لا يعلم أحد معناها وما لا يعلم أحد معناه لا يجوز أن يستدل به. فيبقي هذا الكلام سداً لباب الهدى والبيان من جهة الأنبياء، وفتحاً لباب من يعارضهم ويقول : إن الهدي والبيان في طريقنا لا في طريق الأنبياء لأنا نحن نعلم ما نقول ونبينه بالأدلة العقلية والأنبياء لم يعلموا ما يقولون، فضلاً عن أن يبينوا مرادهم.

فتبين أن قول أهل التفويض الذين يزعمون أنهم متبعون للسنة والسلف من شر أقوال أهل البدع والإلحاد.

(انتهى من "درء تعارض العقل والنقل" / ١/ ص ١٣٤-١٣٥).

وطريقتهم في نصوص الصفات إمرار لفظها مع تفويض معناها. ومنهم من يتناقض فيقول: تُجرى على ظاهرها، مع أن لها تأويلاً يخالفه لا يعلمه إلا الله. وهذا ظاهر التناقض، فإنه إذا كان المقصود بها التأويل الذي يخالف الظاهر – وهو لا يعلمه إلا الله – فكيف يمكن إجراؤها على ظاهرها؟

وقد قال الشيخ رحمه الله عن طريقة هؤلاء في كتاب "العقل والنقل": (فتبين أن قول أهل التفويض الذين يزعمون أنهم متبعون للسنة والسلف من شر أقوال أهل البدع والإلحاد) [١٢٩] انتهى.

---

[١٢٩] قال الشيخ في الشرح: العجيب أن كثيراً من الناس – الذين لا يدرون عن مذهب السلف – يقولون إن أهل السنة ينقسمون إلى قسمين لا ثالث لهما .. أهل التأويل وأهل التفويض. ويعنون بالتفويض تفويضَ المعنى، الذي هو التجهيل في الواقع .. معناه أن السلف ليسوا من أهل السنة .. لأن السلف يثبتون المعنى ولا يؤولون، فهم ليسوا مفوضة كأهل التجهيل وليسوا مؤولة كأهل التعطيل. فهناك .. قسم ثالث .. وهم أهل السنة، وهم الذين يفوضون الكيفية ويقرون بالمعنى، وهم السلف.

والشبهة التي احتج بها أهل التجهيل هي وقف أكثر السلف على ﴿إلا الله﴾ مِن قوله تعالى: ﴿فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاءَ الفتنة وابتغاءَ تأويله وما يعلم تأويلَه إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا﴾[١٣٠].

---

[١٣٠] قال الإمام ابن تيمية رحمه الله: فإن قيل : أنتم تعلمون أن كثيراً من السلف رأوا أن الوقف عند قوله: ﴿**وما يعلم تأويله إلا الله**﴾ [آل عمران : ٦] بل كثير من الناس يقول : هذا هو قول السلف. ونقلوا هذا القول عن أبي بن كعب وابن مسعود وعائشة وابن عباس وعروة بن الزبير وغير واحد من السلف والخلف. وإن كان القول الآخر وهو: أن السلف يعلمون تأويله ـ منقولاً عن ابن عباس أيضاً، وهو قول مجاهد ومحمد بن جعفر وابن إسحاق وابن قتيبة وغيرهم، وما ذكرتموه قدح في أولئك السلف وأتباعهم.

قيل : ليس الأمر كذلك، فإن أولئك السلف الذين قالوا : (لا يعلم تأويله إلا الله) كانوا يتكلمون بلغتهم المعروفة بينهم، ولم يكن لفظ التأويل عندهم يراد به معني التأويل الاصطلاحي الخاص، وهو: صرف اللفظ عن المعني المدلول عليه المفهوم منه إلى معنى يخالف ذلك، فإن تسمية هذا المعني وحده تأويلاً إنما هو اصطلاح طائفة من المتأخرين من الفقهاء والمتكلمين وغيرهم، ليس هو عرف السلف من الصحابة والتابعين والأئمة الأربعة وغيرهم، لا سيما ومن يقول: إن لفظ التأويل هذا

معناه يقول : إنه يحمل اللفظ على المعنى المرجوح لدليل يقترن به. وهؤلاء يقولون : هذا المعنى المرجوح لا يعلمه أحد من الخلق، والمعنى الراجح لم يرده الله.

وإنما كان لفظ التأويل في عرف السلف يراد به ما أراده الله بلفظ التأويل في مثل قوله تعالى: **﴿هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق﴾** [الأعراف : ٥٣]، وقال تعالى: **﴿ذلك خير وأحسن تأويلاً﴾** [النساء : ٥٩]، وقال يوسف: **﴿يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل﴾** [يوسف : ١٠٠]، وقال يعقوب له: **﴿ويعلمك من تأويل الأحاديث﴾** [يوسف : ٦]، **﴿وقال الذي نجا منهما وادكر بعد أمة أنا أنبئكم بتأويله﴾** [يوسف : ٤٥]، وقال يوسف: **﴿لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما﴾** [يوسف : ٣٧].

فتأويل الكلام الطلبي : الأمر والنهي وهو نفس فعل المأمور به وترك المنهي عنه كما قال سفيان بن عيينة : السنة تأويل الأمر والنهي. وقالت عائشة : كان رسول الله صلي الله عليه وسلم في يقول ركوعه وسجوده : «**سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي**» يتأول القرآن. وقيل لعروة بن الزبير : فما بال عائشة كانت تصلي في السفر أربعاً؟ قال : تأولت كما تأول عثمان. ونظائره متعددة.

وأما تأويل ما أخبر الله به عن نفسه وعن اليوم الآخر فهو نفس الحقيقة التي أخبر عنها وذلك في حق الله : هو كنه ذاته وصفاته التي لا يعلمها غيره. ولهذا قال مالك وربيعة وغيرهما: الاستواء معلوم والكيف مجهول. وكذلك قال ابن الماجوشون وأحمد بن حنبل وغيرهما من السلف يقولون : إنا لا نعلم كيفية ما أخبر الله به عن نفسه وإن علمنا تفسيره ومعناه.

ولهذا رد أحمد بن حنبل على الجهمية والزنادقة فيما طعنوا فيه من متشابه القرآن وتأولوه على غير تأويله فرد على من حمله على غير ما أريد به وفسر هو جميع الآيات المتشابهة وبين المراد بها.

وكذلك الصحابة والتابعون فسروا جميع القرآن وكانوا يقولون : إن العلماء يعلمون تفسيره وما أريد به وإن لم يعلموا كيفية ما أخبر الله به عن نفسه. وكذلك لا يعلمون كيفية الغيب فإن ما أعده الله لأوليائه من النعيم لا عين رأته ولا أذن سمعته ولا خطر على قلب بشر، فذاك الذي أخبر به لا يعلمه إلا الله. فمن قال من السلف: (إن تأويل المتشابه لا يعلمه إلا الله) بهذا المعنى فهذا حق.

وأما من قال : إن التأويل الذي هو تفسيره وبيان المراد به لا يعلمه إلا الله فهذا ينازعه فيه عامة الصحابة والتابعين الذين فسروا القرآن كله وقالوا : إنهم يعلمون معناه، كما قال مجاهد: عرضت المصحف على ابن عباس من فاتحته إلي خاتمته أقفه عند كل آية وأسأله عنها. وقال ابن مسعود: ما في كتاب الله آية إلا وأنا أعلم فيم أنزلت. وقال الحسن البصري : ما أنزل الله آية إلا وهو يحب أن يعلم ما أراد بها.

ولهذا كانوا يجعلون القرآن يحيط بكل ما يطلب من علم الدين، كما قال مسروق: ما نسأل أصحاب محمد عن شيء إلا وعلمه في القرآن، ولكن علمنا قصر عنه. وقال الشعبي: ما ابتدع قوم بدعة إلا في كتاب الله بيانها. وأمثال ذلك من الآثار الكثيرة المذكورة بالأسانيد الثابتة مما ليس هذا موضع بسطه.

(انتهى من "درء تعارض العقل والنقل" / ١/ ص١٣٥-١٣٧).

وقد بنوا شبهتهم على مقدمتين: الأولى: أن آياتِ الصفات من المتشابهة. الثانية: أن المراد بالتأويل المذكورِ في الآيةِ صرفُ اللفظ عن ظاهره إلى المعنى الذي يخالف الظاهر، فتكون النتيجة أن لآيات الصفات معنىً يخالف ظاهرها لا يعلمه إلا الله.

والرد عليهم من وجوه:

الأول: أن نسألهم ماذا يريدون بالتشابه الذي أطلقوه على آيات الصفات. أيريدون بذلك اشتباهَ المعنى وخفاءَه، أم يريدون اشتباهَ الحقيقة وخفاءَها؟ فإن أرادوا المعنى الأول - وهو مرادهم - فليست آيات الصفات منه لأنها ظاهرة المعنى.

وإن أرادوا المعنى الثاني فآيات الصفات منه، لأنه لا يعلم حقيقتها وكيفيتها إلا الله تعالى[١٣١].

وبهذا عرف أنه لا يصح إطلاق التشابه على آيات الصفات، بل لابد من التفصيل السابق.

الثاني: أن قولهم: (إن التأويل المذكور في الآية هو صرف اللفظ عن ظاهره إلى المعنى الذي يخالف الظاهر) غيرُ صحيح. فإن هذا المعنى للتأويل اصطلاح حادث لم يعرفه العرب والصحابة الذين نزل القرآن بلغتهم. وإنما المعروف عندهم أن التأويل يراد به معنيان:

---

[١٣١] قال الإمام ابن قدامة -رحمه الله-: وقولهم: (الكيف غير معقول) لأنه لم يرد به توقيف ولا سبيل إلى معرفته بغير توقيف. ("ذم التأويل" / ص٢٦).

إما التفسير. ويكون التأويل على هذا المعنى معلوماً لأولي العلم، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: (أنا من الراسخين في العلم الذين يعلمون تأويله). وعليه يحمل وقف كثير من السلف على قوله تعالى: ﴿والراسخون في العلم﴾ من الآية السابقة.

وإما حقيقة الشيء ومآله. وعلى هذا يكون تأويل ما أخبر الله به عن نفسه وعن اليوم الآخر غير معلوم لنا، لأن ذلك هو الحقيقةُ والكيفية التي هو عليها وهو مجهول لنا، كما قاله مالكٌ وغيره في الاستواء وغيره. وعليه يحمل وقف جمهور السلف على قوله تعالى: ﴿وما يعلم تأويله إلا الله﴾ من الآية السابقة.

الوجه الثالث: أن الله أنزل القرآن للتدبر، وحثنا على تدبره كله ولم يستثن آيات الصفات. والحث على تدبره يقتضي أنه يمكن الوصول إلى معناه، وإلا لم يكن للحث على تدبره معنىً، لأن الحث على شيء لا يمكن الوصول إليه لغوٌ من القول ينزه كلام الله وكلام رسوله ﷺ عنه. وهذا - أعني الحث على تدبره كله من غير استثناء - يدل على أن لآيات

الصفات معنىً يمكن الوصول إليه بالتدبر. وأقرب الناس إلى فهم ذلك المعنى هو النبي ﷺ وأصحابُه(١٣٢)،

لأن القرآن نزل بلغتهم، ولأنهم أسرع الناس إلى امتثال الحث على التدبر خصوصاً فيما هو أهم مقاصد الدين(١٣٣).

---

(١٣٢) قد تلقى الصحابة رضي الله عنهم هذه التعاليم بعقل صحيح وفهم راسخ، فهُم أعلم الناس بمراد الله في القرآن ومراد رسول الله ﷺ في السنة.

قال الخطيب البغدادي -رحمه الله-: والصحابة أرباب اللسان وأعلم الخلق بمعاني الكلام. ("الجامع لأخلاق الراوي"/ ٣/ ص ٢٧٤).

(١٣٣) قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: وهكذا إذا تدبر المؤمن العليم سائر مقالات الفلاسفة وغيرهم من الأمم التي فيها ضلال وكفر، وجد القرآن والسنة كاشفين لأحوالهم، مبينين لحقهم، مميزين بين حق ذلك وباطله. **والصحابة كانوا أعلم الخلق بذلك**، كما كانوا أقوم الخلق بجهاد الكفار والمنافقين، كما قال فيهم عبد الله بن مسعود : من كان منكم مستنا فليستن بمن قد مات، فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة، أولئك أصحاب محمد، كانوا أبر هذه الأمة قلوبا، وأعمقها علما، وأقلها تكلفا، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه وإقامة دينه، فاعرفوا لهم حقهم، وتمسكوا بهديهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم. فأخبر

وقد قال أبو عبد الرحمن السُّلَمِي: (حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن - عثمانُ بنُ عفانَ وعبدُ الله بنُ مسعودٍ وغيرُهما - أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات، لا يتجاوزونها حتى يتعلموها وما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً) [١٣٤].

عنهم بكمال برّ القلوب، مع كمال عمق العلم، وهذا قليل في المتأخرين. ("مجموع الفتاوى"/ ٤/ ص١٣٧-١٣٨).

[١٣٤] أخرجه الفريابي في "فضائل القرآن" (١٥٣) وابن وضاح في "البدع" (١٢٥) والطحاوي في "مشكل الآثار" (١٢٥٢) من طريق عطاء بن السائب ، عن أبي عبد الرحمن السلمي قال : إنما أخذنا القرآن عن قوم أخبرونا أنهم كانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يجاوزوهن إلى العشر الأخر حتى يعلموا ما فيهن من العمل قال : فتعلمنا العلم والعمل جميعا ، وأنه سيرث القرآن بعدنا قوم يشربونه شرب الماء لا يجاوز هذا ، وأشار بيده إلى حنكه.

سنده حسن من أجل عطاء بن السائب.

فكيف يجوز مع هذا أن يكونوا جاهلين بمعاني نصوص الصفات التي هي أهم شيء في الدين؟![١٣٥]

الرابع: أن قولهم يستلزم أن يكون الله قد أنزل في كتابه المبين ألفاظاً جوفاءَ لا يَبِين بها الحق، وإنما هي بمنزلة الحروف الهجائية والأبجدية. وهذا ينافي حكمة الله التي أنزل الله الكتاب وأرسل الرسول من أجلها.

تنبيه

علم مما سبق أن معانيَ التأويل ثلاثة:

أحدها: التفسير، وهو إيضاح المعنى وبيانه. وهذا اصطلاح جمهور المفسرين، ومنه قوله ﷺ لابن عباس: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل». وهذا معلوم عند العلماء في آيات الصفات وغيرها.

---

[١٣٥] بل الصحابة وتلاميذهم هم العلماء الراسخون في العلم.

قال مجاهد: عرضت المصحف على ابن عباس رضي الله عنهما من فاتحته إلى خاتمته، أقف عند كل آية أسأله عنها. (أخرجه الدارمي (١١٢٠)، وابن أبي شيبة (٣٠٢٨٧)، والحاكم (٣١٠٥) وغيرهم، **وسنده صحيح**).

وعن مسروق قال : ما نسأل أصحاب محمد من شيء إلا علمه في القرآن إلا أن علمنا يقصر عنه. (**سنده صحيح**، أخرجه أبو خيثمة النسائي في "العلم" (٥٠) والخطيب البغدادي في "الفقيه والمتفقه" (١٩٤)).

وعن الشعبي قال: ما ابتدع في الإسلام بدعة إلا وفي كتاب الله عز وجل ما يكذبه. (أخرجه الخلال "السنة" (٣/ ص ٥٤٧) **وإسناده صحيح**).

الثاني: الحقيقة التي يؤول الشيء إليها، وهذا هو المعروف من معنى التأويل في الكتاب والسنة، كما قال تعالى: ﴿هل ينظرون إلا تأويله﴾، ﴿ذلك خير وأحسن تأويلاً﴾. فتأويل آيات الصفات بهذا المعنى هو الكُنْهُ والحقيقة التي هي عليها، وهذا لا يعلمه إلا الله.

الثالث: صرف اللفظ عن ظاهره إلى المعنى الذي يخالف الظاهر، وهو اصطلاح المتأخرين من المتكلمين وغيرهم. وهذا نوعانِ صحيحٌ وفاسدٌ.

فالصحيح ما دل الدليل عليه. مثلُ تأويل قوله تعالى: ﴿فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم﴾ إلى أن المعنى إذا أردت أن تقرأ.

والفاسد ما لا دليل عليه، كتأويل استواء الله على عرشه باستيلائه، ويده بقوته ونعمته، ونحوِ ذلك.

فصل

روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: (تفسير القرآن على أربعه أوجه: تفسيرٌ تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يُعذر أحد بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله فمن ادعى علمه فهو كاذب) انتهى[١٣٦].

فالتفسير الذي تعرفه العرب من كلامها هو تفسير مفردات اللغة، كمعرفة معنى القَرْءِ والنمارق والكهف ونحوِها.

والتفسير الذي لا يعذر أحد بجهالته هو تفسير الآيات المكلَّفِ بها اعتقاداً أو عملاً، كمعرفة الله بأسمائه وصفاته ومعرفة اليوم الآخر والطهارة والصلاة والزكاة وغيرها.

والتفسير الذي يعلمه العلماء هو ما يخفى على غيرهم، مما يمكن الوصول إلى معرفته، كمعرفة أسباب النزول والناسخ والمنسوخ والعام والخاص والمحكم والمتشابه ونحوِ ذلك.

---

[١٣٦] أخرجه الطبري في تفسيره (١/ ص ٧٥) موقوفاً، **وسنده ضعيف** لأن فيه مؤمل وهو مؤمل بن إسماعيل العدوي مولى آل الخطاب، قال البخاري: منكر الحديث. (راجع "تهذيب التهذيب" / ١٠/ ص ٣٣٩).

وأبو الزناد لم يعرف سماعه من ابن عباس.

ورواه الطبري في تفسيره (١/ ٧٦) عن ابن عباس مرفوعاً، **وسنده ضعيف جداً** لأن فيه الكلبي وهو أبو النضر محمد بن السائب الكلبي الكوفي المفسر النسابة الاخباري، متروك. (راجع "ميزان الاعتدال" / ٣/ ص ٥٥٦).



وأما التفسير الذي لا يعلمه إلا الله فهو حقائق ما أخبر الله به عن نفسه وعن اليوم الآخر، فإن هذه الأشياء نفهم معناها، لكن لا ندرك حقيقة ما هي عليه في الواقع.

مثال ذلك أننا نفهم معنى استواءِ الله على عرشه، ولكننا لا ندرك كيفيتَه التي هي حقيقة ما هو عليه في الواقع. وكذلك نفهم معنى الفاكهة والعسل والماء واللبن وغيرِها مما أخبر الله أنه في الجنة، ولكن لا ندرك حقيقته في الواقع، كما قال تعالى: ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاءً بما كانوا يعملون﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: ليس في الدنيا شيء مما في الجنة إلا الأسماءُ[١٣٧].

وبهذا تبين أن في القرآن ما لا يعلم تأويله إلا الله، كحقائقِ أسمائه وصفاته وما أخبر الله به عن اليوم الآخر. وأما معاني هذه الأشياء فإنها معلومة لنا، وإلا لما كان للخطاب بها فائدة، والله أعلم.

---

[١٣٧] أثر صحيح، أخرجه الإمام الطبري في "جامع البيان" (١/ ص ٣٩١-٣٩٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء.

الباب الرابع والعشرون: في انقسام أهل القبلة في آيات الصفات وأحاديثها

المراد بأهل القبلة من يصلي إلى القبلة، وهم كل من ينتسب إلى الإسلام[١٣٨]. وقد انقسم أهل القبلة في آيات الصفات وأحاديثها إلى ستِّ طوائفَ: طائفتان قالوا تُجرى على ظاهرها، وطائفتان قالوا تُجرى على خلاف ظاهرها، وطائفتان واقفتان.

فالطائفتان الذين قالوا تُجرى على ظاهرها هم: أولاً: طائفة المشبهة الذين جعلوها من جنس صفات المخلوقين[١٣٩]، ومذهبهم باطل أنكره عليهم السلف.

ثانياً: طائفة السلف الذين أجرَوْها على ظاهرها اللائقِ بالله تعالى. ومذهبهم هو الصواب المقطوعُ به، لدلالة الكتاب والسنة والعقل عليه دلالةً ظاهرةً، إما قطعية وإما ظنية، كما تقدم دليل وجوبها وصحتها في البابين الثالث والرابع.

والفرق بين هاتين الطائفتين أن الأولى تقول بالتشبيه، والثانية تنكره.

فإن قال المشبه – في علم الله ونزوله ويده مثلاً – أنا لا أعقل من العلم والنزول واليد إلا مثلَ ما يكون للمخلوق من ذلك.

---

[١٣٨] قال الشيخ في الشرح: ... أما هل هم مسلمون أو غير مسلمين، هذا شيء آخر. المهم هؤلاء يقولون أنهم مسلمون.

[١٣٩] قال الشيخ في الشرح: ونحن إذا سمينا هذا ظاهراً فإنما نسميه من باب التَّنَزُّل. وإلا فليس ظاهرُ كلام الله ورسوله في صفاته ليس ظاهرُه التشبيهَ، لكن تنزُّلاً معهم.

فجوابه من وجوه:

الأول: أن العقل والسمع قد دل كل منهما على مباينة الخالق للمخلوق في جميع صفاته. فصفات الخالق تليق به وصفات المخلوق تليق به. فمن أدلة السمع – على مباينة الخالق للمخلوق – قوله تعالى: ﴿ليس كمثله شيء﴾.

ومن أدلة العقل أن يقال: كيف يكون الخالقُ الكاملُ من جميع الوجوه الذي الكمالُ من لوازم ذاته وهو معطي الكمالِ، مشابهاً للمخلوق الناقص الذي النقصُ من لوازم ذاته وهو مفتقر إلى من يُكمِّله؟!

الثاني: أن يقال له: ألست تعقل لله ذاتاً لا تشبه ذواتِ المخلوقين؟ فسيقول: بلى. فيقال له: فلتعقل إذاً أن لله صفاتٍ لا تشبه صفاتِ المخلوقين، فإن القول في الصفات كالقول

في الذات[١٤٠]، ومن فرَّق بينهما فقد تناقض.

الثالث: أن يقال: نحن نشاهد من صفات المخلوقات صفاتٍ اتفقت في أسمائها وتباينت في كيفيتها، فليست يد الإنسان كيد الحيوان الآخر. فإذا جاز اختلافُ الكيفية في صفات المخلوقات مع اتحادها في الاسم، فاختلاف ذلك بين صفات الخالق والمخلوق من باب أولى. بل التباينُ بين صفات الخالق والمخلوق واجبٌ كما تقدم.

---

[١٤٠] قال أبو بكر الخطيب البغدادي رحمه الله: أما الكلام في الصفات، فأما ما روي منها في السنن الصحاح، فمذهب السلف إثباتها وإجراؤها على ظواهرها، ونفي الكيف والتشبيه عنها، والأصل في هذا أن الكلام في الصفات فرع على الكلام في الذات، ونحتذي في ذلك حذوه ومثاله، وإذا كان معلوماً أن إثبات رب العالمين إنما هو إثبات وجود لا إثبات تحديد وتكييف، فكذلك إثبات صفاته فإنما هو إثبات وجود لا إثبات تحديد وتكييف. فإذا قلنا: يد وسمع وبصر، فإنما هو إثبات صفات أثبتها الله لنفسه، ولا نقول إن معنى اليد: القدرة، ولا نقول: إن معنى السمع والبصر: العلم، ولا نقول: إنها جوارح وأدوات الفعل، ونقول: إنما وجب إثباتها لأن التوقيف ورد بها، ووجب نفي التشبيه عنها، لقوله تعالى: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾، وقوله: ﴿**وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ**﴾. (أخرجه الذهبي بسنده إليه في كتاب "العرش" / ص١٤٨-١٤٩/ ط. دار الكتب العلمية).

وأما الطائفتان الذِين قالوا: تُجرى على خلاف ظاهرها، وأنكروا أن يكون لله صفاتٌ ثبوتيةٌ، أو أنكروا بعض الصفات، أو أثبتوا الأحوال دونَ الصفات[١٤١]. فهم:

أولاً: أهل التأويل من الجهمية وغيرِهم الذين أوّلوا نصوص الصفات إلى معانٍ عيّنوها، كتأويلهم اليدَ بالنعمة والاستواءَ بالاستيلاء ونحوِ ذلك.

ثانياً: أهل التجهيل المفوضة الذين قالوا: الله أعلم بما أراد بنصوص الصفات، لكننا نعلم أنه لم يُرِد إثباتَ صفةٍ خارجية له تعالى. وهذا القول متناقض، فإن قولَهم: (نعلم أنه لم يُرِد إثبات صفة خارجية له) يناقض التفويض، لأن حقيقة التفويض أن لا يحكم المفوض بنفي ولا إثبات، وهذا ظاهر.

---

[١٤١] قال الشيخ في الشرح: المعتزلة وكذلك الأشاعرة أيضاً. وما معنى الأحوال؟ قالوا مثلاً إن الله سميع. ليس المعنى أن له سمعاً، لكن هو ذو سمع .. يعني حاله أن يكون سميعاً، لكن تبي تثبت .. أنه له سمع لا. فأقول هو ذو سمع، وليس المعنى أنه متصف بسمع. فيكون الله عليم. وكونه عليماً هذه هي الحال. أما أن له علماً فلا. ولا شك هذا تناقض.

والفرق بين هاتين الطائفتين أن الأولى أثبتوا لنصوص الصفات معنىً لكنه خلاف ظاهرها، وأما الثانية فيفوضون ذلك إلى الله من غير إثبات معنى مع قولهم إنه لا يُراد من تلك النصوص إثبات صفة لله[١٤٢]– عز وجل – .

وأما الطائفتان الذِين توقفوا فهم:

أولاً: طائفة جوّزوا أن يكون المرادَ بنصوص الصفات إثباتُ صفة تليق بالله وأن لا يكون المرادَ ذلك، وهؤلاء كثير من الفقهاء وغيرهم.

ثانياً: طائفة أعرضوا بقلوبهم وألسنتهم عن هذا كله، ولم يزيدوا على قراءة القرآن والحديث[١٤٣].

---

(١٤٢) قال الشيخ في الشرح: ولا شك أن الطائفة التي تثبت لها معنىً خير في العقل والنظر ممن لا تثبت. ولا شك أن التي تثبت معنى يخالف الظاهر أشد جرأة من الذين توقفوا، أشد. فكل واحدة من الطائفتين خير من الأخرى من وجه. انتهى.

(١٤٣) وهذا خلاف أمر الله تعالى بتدبر القرآن. قال الله تعالى: ﴿**أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها**﴾ [محمد: ٢٤].

قال الإمام ابن كثير –رحمه الله–: يقول تعالى آمراً بتدبر القرآن وتفهمه، وناهياً عن الإعراض عنه، فقال: ﴿**أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها**﴾ أي: بل على قلوب أقفالها، فهي مطبقة لا يخلص إليها شيء من معانيه. ("تفسير القرآن العظيم" / ٧/ ص ٣٢٠).

وقال الإمام ابن كثير –رحمه الله– في تفسير آية أخرى: يقول تعالى آمرا عباده بتدبر القرآن، وناهيا لهم عن الإعراض عنه، وعن تفهم معانيه المحكمة وألفاظه البليغة، ومخبرا لهم أنه لا اختلاف فيه ولا اضطراب، ولا تضاد ولا تعارض؛ لأنه تنزيل من حكيم حميد، فهو حق من حق؛ ولهذا قال تعالى: ﴿**أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها**﴾ [محمد: ٢٤] ثم قال: ﴿**ولو كان من عند غير الله**﴾ أي: لو كان مفتعلا مختلقا، كما يقوله من يقوله من جهلة المشركين والمنافقين في بواطنهم ﴿**لوجدوا فيه اختلافا كثيرا**﴾ أي: اضطرابا وتضادا كثيرا. أي: وهذا سالم من الاختلاف، فهو من عند الله. كما قال تعالى مخبرا عن الراسخين في العلم حيث قالوا: ﴿**آمنا به كل من عند ربنا**﴾ [آل عمران:٧] أي: محكمه ومتشابهه حق؛ فلهذا ردوا المتشابه إلى المحكم فاهتدوا، والذين في قلوبهم زيغ ردوا المحكم إلى المتشابه فغووا؛ ولهذا مدح تعالى الراسخين وذم الزائغين. ("تفسير القرآن العظيم" / ٢/ ص٣٦٥-٣٦٦).

وقال الإمام ابن القيم –رحمه الله–: وكأن القلب بمنزلة الباب المرتج الذي قد ضرب عليه قفل، فإنه ما لم يفتح القفل لا يمكن فتح الباب والوصول إلى ما وراءه، وكذلك ما لم يرفع الختم والقفل عن القلب لم يدخل الإيمان والقرآن. وتأمل تنكير القلب وتعريف الأقفال، فإن تنكير القلوب يتضمن إرادة قلوب هؤلاء وقلوب من هم بهذه الصفة. ولو قال: (أم على القلوب أقفالها) لم تدخل قلوب غيرهم في الجملة. وفي قوله: ﴿**أقفالها**﴾ بالتعريف نوع تأكيد، فإنه لو قال: (أقفالٌ) لذهب الوهم إلى ما يعرف بهذا الاسم. فلما أضافها إلى القلوب عُلم أن المراد بها ما هو للقلب بمنزلة القفل للباب، فكأنه أراد أقفالها المختصة بها التي لا تكون لغيرها والله أعلم. ("شفاء العليل" / ص ٩٥-٩٦).

والفرق بين هذه الطائفة والتي قبلها: أن الأولى تحكم بتَجْوِيز الأمرين الإثباتِ وعدمِه، وأما الثانيةَ فلا تحكم بشيء أبداً، والله أعلم[١٤٤].

(١٤٤) قال الشيخ في الشرح: وكلتا الطائفتين ضالتان. لأننا كوننا نُجَوِّز هذا وهذا وهذا في أشياءَ لا تليق بالله، هذا حرام، فما لا يليق بالله لا يمكن أن يجوز. والثانية كوننا نعرض عن هذا كله، مخالف لقوله تعالى: ﴿**كتاب أنزلناه إليك مبارك لِيدّبروا آياته ولِيتذكر أولو الألباب**﴾ ووقوع فيما أنكر الله حيث قال – عز وجل – : (أفلم يدَّبروا القول) وهذا الاستفهام للإنكار. فالله أمرنا بالتدبر لنثبت المعنى الذي دل عليه اللفظ، انتهى.

الباب الخامس والعشرون: في ألقاب السوء التي وضعها المبتدعة على أهل السنة

من حكمة الله تعالى أن جعل لكل نبي عدواً من المجرمين، يصدون عن الحق بما استطاعوا من قول وفعل، بأنواع المكائد والشُبُهات والدعاوى الباطلة، ليتبينَ بذلك الحقُّ ويتضحَ ويعلوَ على الباطل. وقد لقِيَ النبيُّ ﷺ وأصحابُه من هذا شيئاً كثيراً، كما قال تعالى: ﴿ولَتسمعُنَّ من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذىً كثيراً﴾. فقد وضع أولئك الظالمون المشركون للنبي ﷺ وأصحابه ألقابَ التشنيع والسخرية مثلَ ساحرٍ ومجنونٍ وكاهنٍ وكذابٍ ونحوَ ذلك.

ولمّا كان أهل العلم والإيمان هم ورثةَ النبي ﷺ لقُوا من أهل الكلام والبدع مثلَ ما لقيه النبي ﷺ وأصحابُه من أولئك المشركين. فكانت كل طائفة من هذه الطوائف تلقب أهل السنة بما برأهم الله منه من ألقاب التشنيع والسخرِيَة. إما لجهلهم بالحق، حيث ظنوا

صحةَ ما هم عليه وبطلانَ ما عليه أهل السنة. وإما لسوء القصد، حيث أرادوا بذلك التنفيرَ عن أهل السنة والتعصبَ لآرائهم، مع علمهم بفسادها[١٤٥].

فالجهمية ومن تبعهم من المعطلة سَمَّوْا أهل السنة (مُشَبِّهَةً) زعماً منهم أن إثبات الصفات يستلزم التشبيهَ.

والروافض سَمَّوْا أهل السنة (نواصب) لأنهم يوالون أبا بكر وعمرَ كما كانوا يوالون آل النبي ﷺ . والروافض تزعم أن من والى أبا بكر وعمرَ فقد نَصَبَ العداوةَ لآل البيت، ولذلك كانوا يقولون: لا ولاءَ إلا ببراءٍ، أيْ لا ولاية لآل البيت إلا بالبراءة من أبي بكر وعمرَ.

والقدرية النُّفاةُ قالوا أهل السنة (مُجْبِرَةٌ) لأن إثبات القدر جَبْرٌ عند هؤلاء النُّفاة.

والمرجئة المانعون من الاستثناء في الإيمان يسمون أهل السنة (شُكّاكاً) لأن الإيمان عندهم هو إقرار القلب، والاستثناء شك فيه عند هؤلاء المرجئة.

---

[١٤٥] قال الإمام أبو حاتم الرازي –رحمه الله–: عَلامةُ أَهلِ البدَعِ الوَقيعةُ في أَهلِ الأَثَر. ("عقيدة السلف" / ص١١٠/ للإمام الصابوني/ دار المنهاج، و"شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة"/ للالكائي / ١/ ص ٣١٩/ **الأثر حسن لغيره**).

وقال أحمد بن سنان القطان رحمه الله: ليس في الدنيا مبتدع إلا وهو يبغض أهل الحديث؛ وإذا ابتدع الرجل نزع حلاوة الحديث من قلبه. (أخرجه الصابوني في "عقيدة السلف" (ص ١٠٩/ دار المنهاج)، و الحاكم في "معرفة علوم الحديث" (١ / ص ٦)، **سنده صحيح**).

وأهل الكلام والمنطق يسمون أهل السنة (حَشَوِيَّةً) من الحَشْوِ وهو ما لا خير فيه. ويسمونهم (نَوابِت) وهي بذور الزرع التي تنبت معه ولا خير فيها. ويسمونهم (غثاءً) وهو ما تحمله الأودية من الأوساخ. لأن هؤلاء المناطقةَ زعموا أن من لم يحط علماً بالمنطق فليس على يقين من أمره، بل هو من الرِّعاع الذين لا خيرَ فيهم.

والحق أن هذا العِلمَ الذي فَخَرُوا به لا يغني من الحق شيئاً، كما قال الشيخ رحمه الله في كتابه "الردُّ على المنطِقِيِّين": (إني كنت دائماً أعلم أن المنطق[١٤٦] اليونانِيَّ لا يحتاج إليه الذكي ولا ينتفع به البليد) انتهى.

---

[١٤٦] قال الشيخ في الشرح: والعلماء رحمهم الله اختلفوا في جواز تعلم المنطق، فمنهم من حرمه ومنهم من قال إنه مستحب بل ومنهم من أوجبه ... ولكن القول الصحيح - عند بعض العلماء - أنه جائز للإنسان الصافي القريحةِ السالِمِ المعتقِدِ. وعندي أنه لا يجوز – ليش - لأنه ما دام ضياع وقت ولا ينتفع به فإن النبي عليه الصلاة والسلام يقول: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت**» ... فيكون تعلمه ابتداء لا يجوز. تعلمه عند الضرورة للرد على أهله وغيرهم يكون جائزاً ولا بأس به، بل قد يكون واجباً. ولهذا نجد شيخ الإسلام رحمه الله مع أنه يتكلم عن المنطق هذا الكلام نجد أنه يُحاجّ أهل المنطق بمنطقهم وبلسانهم حتى يبين لهم الحق، انتهى.

الباب السادس والعشرون: في الإسلام والإيمان

الإسلام لغةً الانقياد، وشرعاً استسلام العبد لله ظاهراً وباطناً بفعل أوامره واجتناب نواهيه، فيشمل الدين كلَّه. قال الله تعالى: ﴿ورضِيت لكم الإسلام ديناً﴾، وقال تعالى: ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾(١٤٧)،

وقال تعالى: ﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه﴾(١٤٨).

(١٤٧) قال شيخ الإسلام رحمه الله: فإن الإسلام هو الاستسلام، وهو يتضمن الخضوع لله وحده، والانقياد له، والعبودية لله وحده. ("مجموع الفتاوى"/ ٧/ ص ٤٢٦).

(١٤٨) قال الإمام ابن القيم رحمه الله في معنى السليم: ومنه أخذ الإسلام، فإنه من هذه المادة، لأنه الاستسلام والإنقياد لله تعالى، والتخلص من شوائب الشرك، فسلم لربه، وخلص له، كالعبد الذي سلم لمولاه، ليس فيه شركاء متشاكسون. ولهذا ضرب سبحانه هذين المثلين للمسلم المخلص الخالص لربه والمشرك به. ("بدائع الفوائد"/ ٢/ ص ٣٦٢).

وأما الإيمان فهو لغةً التصديق، قال الله تعالى: ﴿وما أنت بمؤمن لنا﴾. وفي الشرع إقرار القلب المستلزِم للقول والعمل. فهو اعتقاد وقول وعمل: اعتقاد القلب، وقول اللسان، وعمل القلب والجوارح[١٤٩]. والدليل على دخول هذه الأشياءِ كلِّها في الإيمان قوله ﷺ: «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيرِه وشرِه»[١٥٠]، وقولُه: «الإيمان بضع وسبعون شعبةً، فأعلاها قولُ لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»[١٥١].

---

[١٤٩] قال الإمام ابن أبي زيد القيرواني رحمه الله: وأن الإيمان قول باللسان، وإخلاص بالقلب، وعمل بالجوارح؛ يزيد ذلك بالطاعة، وينقص بالمعصية نقصاً عن حقائق الكمال لا محبط للإيمان، ولا قول إلا بعمل، ولا قول ولا عمل إلا بنية، ولا قول ولا عمل ولا نية إلا بموافقة السنة، إلخ. (مقدمة "الجامع" / ص ١١٠-١١١/ ط. الرسالة).

[١٥٠] حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه في قصة جبريل عليه السلام. (أخرجه مسلم (٨)). وجاء نحوه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. (أخرجه البخاري (٥٠) ومسلم (٩)).

[١٥١] حديث أبي هريرة رضي الله عنه، (أخرجه البخاري (٩) ومسلم (٣٥)).

فالإيمان بالله وملائكته – إلى آخره – اعتقاد القلب، وقول لا إله إلا الله قول اللسان، وإماطة الأذى عن الطريق عمل الجوارح، والحياء عمل القلب. وبذلك عُرف أن الإيمانَ يشمل الدين كلَّه، وحينئذ لا فرق بينه وبين الإسلام، وهذا حينما ينفرد أحدهما عن الآخر.

أما إذا اقترن أحدهما بالآخر، فإن الإسلام يُفسَّر بالاستسلام الظاهر الذي هو قول اللسان وعمل الجوارح، ويصدر من المؤمن الكاملِ الإيمان والضعيفِ الإيمان – قال الله تعالى: ﴿قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولمَّا يدخلِ الإيمان في قلوبكم﴾ – ومِن المنافقِ لكن يُسَمّى مسلماً ظاهراً ولكنه كافر باطناً.

ويُفسَّر الإيمانُ بالاستسلام الباطن الذي هو إقرار القلب وعمله، ولا يصدر إلا من المؤمن حقاً، كما قال تعالى: ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وَجِلت قلوبُهم وإذا تُلِيَت عليهم آياتُه زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون. الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون. أولئك هم المؤمنون حقاً﴾. وبهذا المعنى يكون الإيمان أعلى، فكل مؤمنٍ مسلمٌ ولا عكس[١٥٢].

---

(١٥٢) وذلك كما قال الله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ

آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٤، ١٥].

قال الإمام ابن كثير رحمه الله: يقول تعالى منكراً على الأعراب الذين أول ما دخلوا في الإسلام ادعوا لأنفسهم مقام الإيمان، ولم يتمكن الإيمان في قلوبهم بعد: **﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾**. وقد استفيد من هذه الآية الكريمة: أن الإيمان أخص من الإسلام كما هو مذهب أهل السنة والجماعة، ويدل عليه حديث جبريل، عليه السلام، حين سأل عن الإسلام، ثم عن الإيمان، ثم عن الإحسان، فترقى من الأعم إلى الأخص، ثم للأخص منه.

-ثم ذكر حديث سعد بن أبي وقاص- قال: أعطى رسول الله ﷺ رجالا ولم يعط رجلا منهم شيئًا، فقال سعد: يا رسول الله، أعطيت فلانًا وفلانا ولم تُعط فلانًا شيئًا، وهو مؤمن؟ فقال النبي ﷺ: «**أو مسلم**» الحديث.

فقد فرق النبي ﷺ بين المسلم والمؤمن، فدل على أن الإيمان أخص من الإسلام. وقد قررنا ذلك بأدلته في أول شرح كتاب الإيمان من "صحيح البخاري" ولله الحمد والمنة. ودل ذلك على أن ذاك الرجل كان مسلما ليس منافقًا؛ لأنه تركه من العطاء ووكله إلى ما هو فيه من الإسلام، فدل هذا على أن هؤلاء الأعراب المذكورين في هذه الآية ليسوا بمنافقين، وإنما هم مسلمون لم يستحكم الإيمان في قلوبهم، فادعوا لأنفسهم مقاماً أعلى مما وصلوا إليه، فأدبوا في ذلك. وهذا معنى قول ابن عباس وإبراهيم النخعي، وقتادة، واختاره ابن جرير.

(انتهى من "تفسير القرآن العظيم" / ٧ / ص ٣٨٩).

فصل في زيادة الإيمان ونقصانه

من أصول أهل السنة والجماعة أن الإيمان يزيد وينقص. وقد دل على ذلك الكتاب والسنة. فمن أدلة الكتاب قوله تعالى: ﴿ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم﴾[١٥٣].

ومن أدلة السنة قوله ﷺ في النساء: «ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهبَ للب الرجل الحازم من إحداكن»[١٥٤]. ففي الآية إثبات زيادة الإيمان، وفي الحديث إثبات نقص الدين.

---

[١٥٣] ذكر الإمام البخاري رحمه الله هذه الآية وأمثالها دلالة على زيادة الإيمان ونقصانه. قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: ثم شرع المصنف يستدل لذلك بآيات من القرآن مصرحة بالزيادة ، وبثبوتها يثبت المقابل ، فإن كل قابل للزيادة قابل للنقصان ضرورة . ("فتح الباري"/ ١ / ص٦٦/ دار السلام).

وقال الإمام الحميدي رحمه الله : سمعت ابن عيينة يقول : الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص، فقال له أخوه إبراهيم بن عيينة : يا أبا محمد، لا تقل ينقص، فغضب وقال: اسكت يا صبي، بلى حتى لا يبقى منه شيء . ("أصول السنة"/ ملحق بمسند الحميدي[١٥٣]/ ٢/ ص٣٦٠ / دار السقّا).

[١٥٤] قال الشيخ في الشرح: ونحن نُشهد الله - عز وجل - وملائكتَه ومن سمع كلامنا هذا، أننا نقول ونرى أنه يلزم أن يقولَ كلُّ مؤمن بما قاله النبي عليه الصلاة والسلام: إنهن ناقصات عقل ودين، وأن

وكل نص يدل على زيادة الإيمان فإنه يتضمن الدَّلالة على نقصه وبالعكس، لأن الزيادةَ والنقصَ متلازمان لا يُعقَل أحدُهما بدون الآخر.

وقد ثبت لفظ الزيادةِ والنقصِ منه عن الصحابة، ولم يعرف عنهم مخالف فيه، وجمهور السلف على ذلك. قال ابن عبد البر: وعلى أن الإيمان يزيد وينقص جماعةُ أهل الآثار والفقهاءُ أهلُ الفتيا في الأمصار. وذَكَرَ عن مالك روايتين في إطلاق النقص، إحداهما: التوقفُ، والثانيةُ: موافقةُ الجماعة.

وخالف في هذا الأصل طائفتان:

إحداهما: المرجئة[١٥٥] الخالصة الذين يقولون إن الإيمانَ إقرار القلب. وزعموا أن إقرار القلب لا يتفاوت، فالفاسق والعدل عندهم سواء في الإيمان.

الثانية: الوعيدية من المعتزلة والخوارج الذين أخرجوا أهل الكبائر من الإيمان. وقالوا: إن الإيمان إما أن يوجد كلُّه وإما أن يُعدَم كلُّه، ومنعوا من تفاضله.

من السَّفَه والخطإ والخطر الخطل أن يُوكل إليهن تدبير المسلمين العامُّ، أما تدبير المنازل والبيوت فهذه إليهن، لأن المرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها، انتهى.

[١٥٥] قال الشيخ في الشرح: المرجئة تقدم الكلام عليهم وأن هذا اللفظ مأخوذ من الرجاء أو من الإرجاء. من الرجاء لأنهم يرجون الفاسق فيقولون أنت ما عليك عقوبة. أو من الإرجاء لأنهم أرجؤوا الأعمال عن الإيمان وأخروها عنه فلا يدخلونها فيه، انتهى.

وكل من هاتين الطائفتين محجوج بالسمع والعقل. أما السمع فقد تقدم في النصوص ما دل على إثبات زيادة الإيمان ونقصه.

وأما العقل فنقول للمرجئة: قولكم: (إن الإيمان هو إقرار القلب، وإقرار القلب لا يتفاوت) ممنوع في المقدِّمتين جميعاً.

أما المقدمة الأولى: فتخصيصكم الإيمان بإقرار القلب مخالف لما دل عليه الكتاب والسنة من دخول القول والعمل في الإيمان.

وأما المقدمة الثانية فقولكم: (إن إقرار القلب لا يتفاوت) مخالف للحس. فإن من المعلوم لكل أحد أن إقرار القلب إنما يتبع العلمَ، ولا ريب أن العلم يتفاوت بتفاوت طرقه. فإن خبر الواحد لا يفيد ما يفيده خبر الاثنين وهكذا. وما أدركه الإنسان بالخبر لا يساوي في العلم ما أدركه بالمشاهدة. فاليقين درجات متفاوتة، وتفاوت الناس في اليقين أمر معلوم. بل الإنسان الواحد يجد من نفسه أنه يكون في أوقات وحالات أقوى منه يقيناً في أوقات وحالات أخرى.

ونقول: كيف يصح لعاقل أن يحكم بتساوي رجلين في الإيمان، أحدُهما مثابر على طاعة الله تعالى فرضِها ونفلِها متباعدٌ عن محارم الله وإذا بدرت منه المعصية بادر إلى الإقلاع عنها والتوبة منها، والثاني مضيِّعٌ لما أوجب الله عليه ومُنْهَمِك فيما حرم الله عليه غيرَ أنه لم يأت ما يُكَفِّرُه، كيف يتساوى هذا وهذا؟!

وأما الوعيدية فنقول لهم: قولكم: (إن فاعل الكبيرة خارج من الإيمان) مخالف لما دل عليه الكتاب والسنة. فإذا تبين ذلك فكيف نحكم بتساوي رجلين في الإيمان، أحدُهما

مُقْتَصِد - فاعل للواجبات تارك للمحرمات -، والثاني ظالمٌ لنفسه بفعل ما حرّم الله عليه وبترك ما أوجب الله عليه من غير أن يفعل ما يَكْفُر به؟!

ونقول ثانياً: هب أننا أخرجنا فاعل الكبيرة من الإيمان، فكيف يمكن أن نحكم على رجلين بتساويهما في الإيمان وأحدهما مقتصد، والآخر سابق بالخيرات بإذن الله؟!

فصلٌ

ولزيادة الإيمان أسباب منها:

١ . معرفة أسماء الله وصفاته. فإن العبد كلما ازداد معرفة بها وبمقتضياتها وآثارها، ازداد إيماناً بربه وحباً له وتعظيماً.

٢ . النظر في آيات الله الكونية والشرعية. فإن العبد كلما نظر فيها وتأمّل ما اشتملت عليه من القدرة الباهرة والحكمة البالغة، ازداد إيمانُه ويقينُه بلا ريب.

٣. فعل الطاعة. فإن الإيمان يزداد به بحسب حُسْن العمل وجنسه وكثرته. فكلما كان العملُ أحسنَ كانت زيادة الإيمان به أعظمَ. وحُسْن العمل يكون بحسب الإخلاص والمتابعة. وأما جنس العمل، فإنّ الواجبَ أفضلُ من المسنون، وبعضَ الطاعات أَوْكَدُ وأفضلُ من البعض الآخر. وكلما كانت الطاعةُ أفضلَ كانت زيادةُ الإيمان بها أعظمَ. وأما كثرةُ، العمل فإن الإيمان يزداد بها لأن العمل من الإيمان، فلا جرم أن يزيدَ بزيادته.

٤ . ترك المعصية خوفاً من الله – عز وجل – . وكلما قَوِيَ الداعي إلى فعل المعصية كان زيادةُ الإيمان بتركها أعظمَ. لأن تركها مع قوة الداعي إليها دليل على قوة إيمان العبد وتقديمه ما يحبه الله ورسوله على ما تهواه نفسُه.

وأما نقص الإيمان فله أسباب:

١ . الجهل بالله تعالى وأسمائه وصفاته.

٢ . الغفلة والإعراض عن النظر في آيات الله وأحكامه الكونية والشرعية. فإن ذلك يوجب مرضَ القلب أو موتَه باستيلاء الشهوات والشُّبُهات عليه.

٣. فعل المعصية فيَنقص الإيمان بحسب جنسها وقَدْرها والتهاونِ بها وقوةِ الداعي إليها أو ضعفِه.

فأما جنسُها وقدرها، فإن نقصَ الإيمان بالكبائر أعظمُ من نقصه بالصغائر، ونقصَ الإيمان بقتل النفس المُحَرَّمةِ أعظمُ من نقصه بأخذ مال مُحْتَرَمٍ، ونقصَه بمعصيتين أكثرُ من نقصه بمعصية واحدة وهكذا.

وأما التهاونُ بها، فإن المعصية إذا صدرت من قلب متهاون بمن عصاه ضعيفِ الخوف منه كان نقصُ الإيمان بها أعظمَ من نقصه إذا صدرت من قلب معظم لله تعالى شديدِ الخوف منه لكنْ فَرَطَتْ منه المعصيةُ.

وأما قوةُ الداعي إليها، فإن المعصيةَ إذا صدرت ممن ضَعُفَتْ منه دواعِيها كان نقصُ الإيمان بها أعظمَ من نقصه إذا صدرت ممن قويت منه دواعِيها. ولذلك كان استكبارُ الفقير

وزِنَى الشيخِ أعظمَ إثماً من استكبار الغني وزنى الشابّ، كما في الحديث: «ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم» وذكر منهم: الأُشَيْمِطَ الزانِيَ والعائلَ المستكبِرَ[١٥٦]، لِقِلة داعي تلك المعصية فيهما.

٤ . تركُ الطاعة. فإن الإيمان ينقص به، والنقصُ به على حسب تَأَكُّدِ الطاعة. فكلما كانتِ الطاعةُ أَوْكدَ كان نقصُ الإيمان بتركها أعظمَ. وربما فُقِدَ الإيمانُ كلُّه كترك الصلاة.

ثم إنّ نقصَ الإيمان بترك الطاعة على نوعين. نوعٌ يعاقب عليه، وهو ترك الواجب بلا عذر. ونوعٌ لا يعاقب عليه، وهو تركُ الواجب لعذر شرعي أو حسي وتركُ المستحب، فالأول كترك المرأة الصلاةَ أيام الحيض، والثاني كترك صلاة الضحى. والله أعلم.

فصلٌ في الاستثناء في الإيمان

الاستثناء[١٥٧] في الإيمان أن يقول: أنا مؤمن إن شاء الله. وقد اختلف الناس فيه على ثلاثة أقوال:

---

[١٥٦] سنده ضعيف بهذا اللفظ، أخرجه الطبراني في "المعجم الكبير" (١٣١٩٦) عن ابن عمر رضي الله عنهما، في سنده ابن لهيعة، وهو سيء الحفظ.

وأخرج مسلم في صحيحه (١٠٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم شيخ زان وملك كذاب وعائل مستكبر**».

[١٥٧] قال الشيخ في الشرح: الأشياء المعلومةُ المُحَقَّقَةُ يكون الاستثناءُ فيها عبثاً ولغواً. والأشياءُ غير المُحَقَّقَة يكون الاستثناء فيها له مَحَلّ.

أحدها: تحريم الاستثناء. وهو قول المرجئة والجهمية ونحوِهم. ومأخذ هذا القولَّ أن الإيمان شيء واحد يعلمه الإنسان من نفسه، وهو التصديق الذي في القلب. فإذا استثنى فيه، كان دليلاً على شكه. ولذلك كانوا يُسمُّون الذين يستثنون في الإيمان شُكَّاكاً.

والقول الثاني وجوب الاستثناء. وهذا القولُ له مأخذان:

أولاً: أن الإيمان هو ما مات الإنسان عليه، فالإنسان إنما يكون مؤمناً وكافراً بحسب الموافاة. وهذا شيء مستقبل غيرُ معلوم، فلا يجوز الجزم به. وهذا مأخذُ كثيرٍ من المتأخرين من الكُلابية وغيرِهم. لكنّ هذا المأخذَ لم يُعْلَم أن أحداً من السلف علّل به[١٥٨]، وإنما كانوا يعلِّلون بالمأخذ الثاني.

---

[١٥٨] قال الشيخ في الشرح: أما على قول بعض الكلابية الذين يقولون تقول إن شاء الله لأنك لا تدري ماذا تموت عليه فهذا ليس بصحيح لأن الإنسان إنما يخبر عن نفسه الآن أما المستقبل فالله به عليم.

وهو: أن الإيمانَ المطلقَ يتضمن فعلَ جميعِ المأمورات وتركَ جميعِ المحظورات. وهذا لا يَجزِم به الإنسان من نفسه. ولو جزم لكان قد زكّى نفسه وشهد لها بأنه من المتقين الأبرارِ، وكان ينبغي على هذا أن يشهد لنفسه بأنه من أهل الجنة، وهذه لوازمُ مُمْتَنِعَةٌ.

القول الثالث التفصيل: فإن كان الاستثناء صادراً عن شكّ في وجود أصل الإيمان، فهذا محرم بل كفر. لأن الإيمانَ جزمٌ والشكَّ ينافيه. وإن كان صادراً عن خوفِ تزكيةِ النفس والشهادةِ لها بتحقيق الإيمان قولاً وعملاً واعتقاداً، فهذا واجب خوفاً من هذا المحذور. وإن كان المقصودُ من الاستثناء التَّبَرُّكَ بذكر المشيئة، أو بيانَ التعليل وأن ما قام بقلبه من الإيمان بمشيئة الله، فهذا جائز(١٥٩).

(١٥٩) قال شيخ الإسلام رحمه الله: أجمع المسلمون على شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وأن ذلك حق **يجزم به المسلمون ويقطعون به ولا يرتابون**، وكل ما علمه المسلم جزم به فهو يقطع به، وإن كان الله قادراً على تغييره. فالمسلم يقطع بما يراه ويسمعه، ويقطع بأن الله قادرعلى ما يشاء، وإذا قال المسلم: أنا أقطع بذلك؛ فليس مراده إن الله لا يقدر على تغييره، بل من قال: إن الله لا يقدر على مثل إماتة الخلق وإحيائهم من قبورهم وعلى تسيير الجبال وتبديل الأرض غير الأرض فإنه يستتاب فإن تاب وإلا قتل.

والذين يكرهون لفظ القطع من أصحاب أبي عمرو بن مرزوق هم قوم أحدثوا ذلك من عندهم، ولم يكن هذا الشيخ ينكر هذا، ولكن أصل هذا أنهم كانوا يستثنون في الإيمان، كما نقل ذلك عن السلف فيقول أحدهم: أنا مؤمن إن شاء الله، ويستثنون في أعمال البر فيقول أحدهم: صليت إن شاء الله؛ ومراد السلف من ذلك الاستثناء إما لكونه لا يقطع بأنه فعل الواجب كما أمرالله ورسوله، فيشكّ في قبول الله لذلك فاستثنى ذلك، أو للشك في العاقبة، أو يستثنى لأن الأمور جميعاً إنما تكون بمشيئة الله كقوله تعالى: ﴿**لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله**﴾ [الفتح : ٢٧] مع أن الله علم بأنهم يدخلون لا شك في ذلك، أو لئلا يزكي أحدهم نفسه.

وكان أولئك يمتنعون عن القطع في مثل هذه الأمور؛ ثم جاء بعدهم قوم جهال، فكرهوا لفظ القطع في كل شيء، ورووا في ذلك أحاديث مكذوبة، وكل من روى عن النبي ﷺ، أو عن أصحابه، أو واحد من علماء المسلمين، أنه كره لفظ القطع في الأمور المجزوم بها، فقد كذب عليه وصار الواحد من هؤلاء يظنّ أنه إذا أقر بهذه الكلمة فقد أقرّ بأمر عظيم في الدين، وهذا جهل وضلال من هؤلاء الجهال لم يسبقهم إلى هذا أحد من طوائف المسلمين، ولا كان شيخهم أبو عمرو بن مرزوق، ولا أصحابه في حياته، ولا خيار أصحابه بعد موته يمتنعون من هذا اللفظ مطلقا؛ بل إنما فعل هذا طائفة من جهالهم.

(انتهى من "مجموع الفتاوى" / ٣/ ص ٢٨٩).

والتعليق بالمشيئة على هذا الوجه - أعني بيانَ التعليل - لا ينافي تَحَقُّقَ المُعَلَّقِ، فإنه قد ورد التعليقُ على هذا الوجه في الأمور المحققة، كقوله تعالى: ﴿لتدخلُنَّ المسجد الحرام إن شاء الله آمنين مُحَلِّقِين رؤوسكم ومُقَصِّرِين لا تخافون﴾.

وبهذا عُرف أنه لا يصحّ إطلاق الحكم على الاستثناء، بل لا بد من التفصيل السابق.

والله أعلم. وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

حُرِّرَ في ٨ من ذي القعدة سنة ١٣٨٠هـ.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات[١٦٠].

---

(١٦٠) تمّ التعليق –بعون الله تعالى وحده– بتاريخ ٢٧ شوال ١٤٣٩ هـ، في ماليزيا بولاية قدح –حرسها الله ووفق أهلها–، سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك، والحمد لله رب العالمين.

فهرس الكتاب